مفهوم السنن الربانية

دراسة في ضوء القرآن الكريم

رمضان خميس زكي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا الكتاب منشور في

مفهوم

السنن الربانية

دراسة في ضوء القرآن الكريم

د. رمضان خميس زكي

مدرس التفسير وعلوم القرآن
في جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[آل عمران: 137.138]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله رب العالمين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة وهداية للعالمين محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه والتابعين.

اللهم إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقواتنا، ونلوذ بحولك وطولك وقوتك؛ فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها يا أرحم الراحمين.

اللهم إنا نسألك يا حنان يا منان، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام أن تجعل أقوالنا وأعمالنا فيك لك خالصة، إنك على كل شيء قدير.

وبعد،،،

-1.

فإن موضوع السنن الربانية من الأهمية بمكان، ورغم خطورة إهماله وضرورة الحديث عنه إلا أنه لم يأخذ من تفكير المسلمين في القديم أو الحديث إلا النذر اليسير، فإذا كانت آيات القرآن الكريم ستة آلاف ومائتين وستة وثلاثين آية، وآيات الأحكام والمعاملات لا تزيد على خمسمائة آية، فإن المسلمين حصروا أنفسهم -إلا من رحم الله.في هذا الجزء اليسير الذي لا يتجاوز 12/1 من مجموع آيات القرآن الكريم، فدخلوا في فروع الفقه ومسائله وفروع فروعه وتفصيلاته، في الوقت الذي يرون فيه أن القرآن الكريم لم يترك مسألة من مسائل عمارة الأرض وإثارة خيرها والانتفاع بما فيها إلا ولمسها وتحدث عنها.

إن القرآن الكريم غني بالجوانب الحضارية التي تتكفل بأن تنشئ أمة وتحيي جيلا، وتقود الناس إلى طريق الله رب العالمين، لكن الأزمة ليست في غياب المنهج الذي يضبط ولكن في العقل الذي يدرك، والقلب الذي يعي، والجارحة التي تعمل وتنفذ.

-2-

إن الجيل الرائد من أصحاب الرسول ﷺ ساد الدنيا، وفتح البلاد وقاد العباد بأمر الله تعالى؛ لأنه استوعب القرآن الكريم استيعابا عمليا فكان يتعلم العلم والعمل معا، من هنا استطاع أن يؤسس حضارة ويبني فكرا وينشئ جيلا بل أجيالا، لكن عندما تراخت قبضة المسلمين عن مفاهيم دينهم أصبحوا لا يبرزون في دنيا ولا يتعمقون في دين.

وصدق فيهم قول القائل:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

-3-

وقد دفعني للكتابة في هذا الميدان غير واحد من الأمر، منها ما لمسته في فكر علماء راسخين وأفذاذ عاملين – حسبتهم كذلك والله حسيبهم – فقد كانت أطروحتي في التخصص حول الشيخ (محمد الغزالي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن)، وكنت أرى بين حين وآخر حديثا منثورا عن قضية السنن وإهمال المسلمين لدراستها، فلفت نظري هذا الكلام الذي لم أكن قد سمعته من قبل، وغذى الفكرة في رأسي أحد شيوخي الأجلاء الذين كنت أتلقى العلم على أيديهم، فكان يدفعنا دفعا إلى القراءة والكتابة في هذا الميدان الخصب، الذي يؤتي أكله ويثمر ثمره للإسلام والمسلمين، وكنا وقتها نسمع هذا الكلام ولا نعي أرجاءه ولا ندرك مراميه كما يسمع عامي قراءة شيخ ماهر فلا يدرك من القراءة إلا جمال النغم وحلاوة الأداء، حتى منَّ الله تعالى علينا ويسر لنا سبيله فله الفضل والمنة.

-4-

هذا وقد سميت هذه الدراسة (السنن الربانية.. دراسة في ضوء القرآن الكريم)، وأعني بالسنن هنا (النظام الإلهي الذي يحكم سلوك البشر في انضباط واطراد). وكلمة الربانية أقصد بها المنسوبة إلى الرب سبحانه وتعالى؛ وذلك لغرض في نفسي أن نسبتها إلى الرب يلحظ فيها ملمح التربية، فإن الله تعالى يربي عباده بهذه السنن الثابتة والنواميس الصارمة. ورغم أنه قد شاع على بعض الألسنة لفظ السنن الإلهية فإنني رأيت أن كلمة الربانية هنا أوفق؛ لما يلمح فيها –كما قلت – من معنى التربية من جهة الله عز وجل.

وقد سبقني في هذا الميدان كتابات، من أهمها وأبرزها كتاب (السنن الإلهية في الأمم والأفراد والجماعات والشعوب) للدكتور عبد الكريم زيدان – أكرمه الله – والكتاب على روعته وعظمته تناول عددا من السنن الربانية ولم يتعرض بتفصيل كاف للحديث عن السنن وطبيعتها وخصائصها وحجمها، وكيفية التعامل معها... إلى غير ذلك.

كذلك وجدت كتابات متناثرة هنا وهناك للأستاذ الإمام حكيم الإسلام الشيخ محمد عبده رحمه الله.

كذلك وقعت – وأنا في المراحل الأخيرة من هذه الدراسة – على كتاب (مدخل إلى دراسة السنن الإلهية في القرآن الكريم» فانتفعت به أيضًا.

كما وجدت في كتابات الأستاذ «مالك بن نبي» وتلميذه البار الأستاذ جودت سعيد غناءً وأي غناء بطريق مباشر وغير مباشر.

هذا وقد قسمت بحثي بعد المقدمة إلى أربعة فصول وخاتمة؛ أما المقدمة فهي ذي، وأما الفصول فكانت على النحو التالي:

الفصل الأول: في الحديث عن مفهوم السنة الربانية في اللغة والقرآن والحديث النبوي الشريف، وقد جاء في عدة مباحث:

المبحث الأول: السنن الربانية في لسان العرب.

المبحث الثاني: السنن الربانية في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: السنن الربانية في السنة النبوية المطهرة.

المبحث الرابع: أهمية دراسة السنن والآثار المترتبة على إهمالها.

والفصل الثاني: جاء في خصائص السنن الربانية، وقد جاء في المباحث التالية:

المبحث الأول: خصائص السنن الربانية.

المبحث الثاني: حجية السنن الربانية.

المبحث الثالث: صيغ ورود السنن الربانية في القرآن الكريم.

المبحث الرابع: موارد السنن الربانية.

المبحث الخامس: صور التعبير عن السنن الربانية في القرآن الكريم.

والفصل الثالث: كان عن العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية، وقد جاء في مبحثين:

المبحث الأول: خصائص السنن الكونية.

المبحث الثاني: التطابق بين السنن الكونية والسنن الربانية في القرآن الكريم.

والفصل الرابع: جاء في منهجية التعامل مع السنن الربانية، وقد شمل المباحث التالية:

المبحث الأول: الإنسان مهيأ لإدراك السنن الربانية.

المبحث الثاني: العلم بالسنن الكونية طريق إلى معرفة السنن الربانية.

المبحث الثالث: السنن الربانية من الفهم إلى التسخير، ومن الإدراك إلى التوظيف.

هذا وكلي أمل في أن يمد الله في عمري حتى أرى هذا المجال الخصب قد أترع بالأقلام الواعية والعقول الواعبة التي تسخر الكون وتوظفه، حتى يهتف الناس من جديد ها قد عاد المسلمون.

اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي.

اللهم تقبله مني إنك أنت السميع العليم.

الفصل الأول

مفهوم السنن الربانية في لسان العرب والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

المبحث الأول

مفهوم السنن في لسان العرب

ترى كتب اللغة أن السنة تعني السيرة والطريقة، حسنة كانت أو سيئة، مقبولة كانت أو مرذولة.[1] ويري ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) أن السنة تعني الطريقة والسيرة؛ ففي حديث المجوس: سنوا بهم سنة أهل الكتاب – أي خذوهم على طريقتهم، وأجروهم في قبول الجزية منهم مجراهم.[2]

والفيروز آبادي تلمس في بصائره الكلمة من نواحيها وطرقها طرقًا يقترب مما نريد الوصول إليه، فهو يذكر أن (الأصل فيها الطريقة والسيرة، ومنه قوله: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[3] أي طرق طريقة حسنة ... وسنة النبي ﷺ: طريقته التي كان يتحراها. وسنة الله قد يقال لطريق حكمته وطريق طاعته، وقوله تعالى: ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا**﴾[4] تنبيه (إلى) أن فروع الشرائع وإن اختلفت صورها فالغرض المقصود فيها لا يتغير ولا يتبدل... وسن الماء على وجهه: صبه صبًّا سهلا. وسن الحديدة حددها، وسنان ومسنون وسنين وسن سكينه بالمسن)[5].

والناظر في كلام الفيروز آبادي – رحمه الله – يجده يلمس معنى السنة من خلال اختيار النصوص وتتبع المادة، ولعل إشارته إلى أن (فروع الشريعة وإن اختلفت صورها فالغرض المقصود منها واحد لا يتغير ولا يتبدل)، وبنعته لكلمة سن من سنن الماء على وجهه، والسن بعض الرعي، كل هذا فيه ضبط دقيق من معنى اللفظة لسن بمعنى الرعي، ففيه نوع من السير على نفس المرعي وبذات الطريقة جيئة وذهابا، وهو نفس السيرة والطريقة. ووحدة

---

(1) انظر: لسان العرب، مادة سنن

(2) انظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر)، جـ 2 صـ409، بتصرف يسير.

(3) البخاري، كتاب الجزية. وموطأ مالك، كتاب الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس.

(4) فاطر: 43.

(5) (بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز)، جـ3 صـ267، 268، ط الثالثة 1416هـ 1996م، تحقيق محمد علي النجار، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بتصرف واختيار.

الغرض المقصود من الشرائع وإن اختلفت صورها نوع أيضا من اتحاد الهدف من السنة التي تجري على اللاحقين كما جدت على السابقين.

والزمخشري في أساسه قد استوعب لفظ السنة وتقلباتها، فقال: سن سنة حسنة ولزم سنن الطريق: قصده. وسنن الفرس وهو عدوه إقبالا وإدبارًا في نشاط وزعل، وسن إبله أحسن رعيها وصقلها كما يسن السيف. وسن الأمير رعيته: أحسن سياستها. وفرس مسنونة: متعهدة بحسن القيام عليها.. وجاء بالحديث على سننه على وجهه... واستنت الطرق: وضحت كل مذهب، ومنه قول القائل:

ولو شهدت مقامي بالحسام على حد المسناة حيث استنت الطرق

واستن به الهوى حيث أراد: ذهب به كل مذهب، ومنه قول القائل:

دعاني إلى ما يشتهي فأجبته أصبح بي يستن حيث يريد[1]

والذي يتأمل نص الزمخشري في الأساس يجد أن المادة وتقلباتها تدل على بعض صفات السنن وخصائصها من الوضوح والثبات والشمول والعموم. والتعهد وحسن المتابعة والرعاية والتكرار، وهذا من الملامح العامة للسنة الربانية، كما سنعرف ذلك – إن شاء الله – عند الحديث عن خصائص السنن الربانية.

وأما الراغب في مفرداته فيقول: سنة الوجه: طريقته، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحراها. وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته.. وقوله تعالى: ﴿**مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾[2] قيل متغير، وقوله تعالى: ﴿لم يتسنه﴾[3] معناه ﴿لم يتغير﴾[4]

وكلام الراغب الأصفهاني رغم اشتراكه مع جزء ليس باليسير من كلام الفيروز آبادي والزمخشري، إلا أنه ألمح إلى صفة من صفات السنن وهي الثبات وعدم التغير كما سيتضح ذلك بعد.

وشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يرى [أن السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار]. [5] وكذلك يرى الإمام الرازي في تفسيره أن السنة هي الطريقة

---

(1) انظر: أساس البلاغة، جـ1 صـ462 . 463، مادة س ن ن، باختصار وتصرف.

(2) الحجر: 28.

(3) البقرة: 259.

(4) انظر: المفردات في غريب القرآن، صـ356، 357، مادة سن ن ن، باختبار. ط الأنجلو، بدون تاريخ.

(5) انظر مجموع الفتاوى، جـ3 / 267، 268.

المستقيمة والمثال المتبع[1].

وقد أبدع صاحب المنار عندما ربط المادة اللغوية لكلمة سنة بالمعنى الدلالي لها عندما قال: «إنها الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع، من قولهم: سن الماء إذا والى صبه، فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب، فإنه لتوالي أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد»[2]. وأجاد وأفاد عندما ربط بين كلمة سنة التي نتحدث عنها و(السنة) المدونة؛ وهي فعل الرسول ﷺ وأقواله وتقريراته بقوله: (إن أهل الحق من سلف الأمة إنما سموا بأهل السنة والجماعة لأنهم ساروا في الاهتداء بالإسلام على السنة، وهي الطريقة العملية التي جرى عليها النبي في بيان القرآن كما أمره الله تعالى بقوله: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[3] وتلقاها عنه بالعمل جماعة من الصحابة... والأقوال وحدها لايتبين بها المراد بيانا قطعيا لا يحتمل التأويل كالأفعال وإن كانت في غاية الجلاء والوضوح، ولذلك قال علي المرتضي -كرم الله تعالى وجهه- لابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - عندما أرسله لمجادلة الخوارج: احملهم على السنة. فإن مراده بالسنة ما ذكرناه من معناها الموافق للغة لا المعنى الاصطلاحي للمحدثين وسائر علماء الشرع الذي يشمل الأخبار القولية وغيرها] [4].

والخلاصة: أن السنة (هي القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتبًا على سلوك البشر).

***

(1) انظر مفاتيح الغيب، 11/9.

(2) انظر تفسير المنار، جـ4 صـ115، بتصرف قليل.

(3) النحل: 44.

(4) انظر تفسير المنار، جـ8 صـ224، 225، بتصرف واختصار.

المبحث الثاني

مفهوم السنن الربانية في القرآن الكريم

وردت لفظة سنة في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة، منها قول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ**﴾[1] وقد وردت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن الكافرين وموقفهم من الإسلام، وإنفاقهم أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وأنهم سينفقونها وستكون عليهم حسرة ثم يغلبون، فأتت هذه الآية الكريمة لتبين لهم أنهم إن انتهوا فإن الله بحلمه وفضله ورحمته سيغفر لهم، وإن يعودوا لما درجوا عليه ويصدوا عن الإسلام بأفعالهم السابقة فقد خلت (سنة) الله تعالى في الأمم الماضية، وسيجري عليهم ما جرى على من سبقهم للذين كفروا.

يقول إمام المفسرين الإمام الطبري عند تناوله لهذه الآية الكريمة: قل يا محمد لمشركي قومك: إن ينتهوا عما هم عليه مقيمون من كفرهم بالله ورسوله وقتالك وقتال المؤمنين فينيبوا إلى الإيمان يغفر الله لهم ما قد خلا ومضى من ذنوبهم قبل إيمانهم وإنابتهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله بإيمانهم وتوبتهم، وإن يعودوا لقتالك بعد الوقعة التي أوقعتها بهم يوم بدر فقد مضت سنتي في الأولين منهم ببدر ومن غيرهم من القرون الخالية؛ إذ طغوا وكذبوا رسلي ولم يقبلوا نصحهم من إحلال عاجل النقم بهم، فأحل بهؤلاء إن عادوا لحربك وقتالك مثل الذي أحللت بهم[2].

ويقول الإمام محمد عبده – رحمه الله–: ﴿**وَإِنْ يَعُودُوا**﴾ أي إلى العداء والصد والقتال. ﴿**فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ**﴾: أي تجري عليهم سنته المطردة في أمثالهم من الأولين الذين عادوا وقاتلوهم.. وهي السنة التي عبر الله عنها بمثل قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[3] وقوله: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾[4] فإضافة السنة إلى

---

(1) الأنفال: 38.

(2) انظر: جامع البيان عن تأويل أي القرآن م السادس، جـ9، ط دار الريان للتراث، 1407هـ/ 1987م، بتصرف يسير. وانظر قريبًا من هذا المعنى في تفسير الكشاف، جـ2 صـ256، للإمام الزمخشري، مكتبة مصر. ومحاسن التأويل، جـ5 صـ292، ط دار الكتب العلمية للإمام القاسمي.

(3) المجادلة: 20–21.

(4) غافر: 51.

الأولين لملابستها لهم وجريانها عليهم[1] وفي ذلك نوع من لفت أنظار المعاندين إلى أن السنة الماضية والقانون الحاكم لخلق الله – عز وجل – أجري على الناس جميعًا دون مجاملة ولا محاباة «فإن سنة الله في الأولين لا تتخلف، ولقد مضت سنة الله تعالى أن يعذب المكذبين بعد التبليغ والبيان وأن يرزق أولياءه النصر والعز والتمكين، وهذه السنة ماضية لا تتخلف، وللذين كفروا أن يختاروا وهم على مفترق الطرق»[2].

ومن الآيات الكريمة التي وردت فيها لفظ سنة قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿**وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ**﴾[3] والآيات الكريمة تتحدث عن صورة من صور الصراع بين الحق والباطل، ولون من جدل أهل الباطل مع الحق وحزبه، فدلت الآيات الكريمة على أن هؤلاء المعاندين الرافضين لا يؤمنون ولن تشرب قلوبهم روح التصديق وقد كذبوا؛ إذ إنهم رأوا الآيات واضحات والدلالات بينات ومع ذلك رفضوا الإيمان وعاندوه.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلا * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا**﴾[4]. والآية الكريمة وردت في سياق الحديث عن الصراع أيضًا بين الحق والباطل، وموقف هؤلاء المعاندين من الدعوة والداعية والرسالة والرسول، ورغبتهم في أن يخرجوه من الأرض التي يدعو فيها إلى الله عز وجل، وموقف صاحب الدعوة والرسالة بقدرته المطلقة وعزته وحكمته من هؤلاء في أنهم لا يخلفون الرسول لو أخرجوه من الأرض، ورد الفعل هذا ليس خاصا بالرسول **صلى الله عليه وسلم** وحده بل هو قانون مطرد وسنة ماضية لا تتحول ولا تتبدل.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ**

---

(1) انظر تفسير المنار، جـ9 صـ552.

(2) انظر: في ظلال القرآن، جـ3 صـ1508، ط الشروق، ط الرابعة، 1397هـ 1977م.

(3) الحجر: 13-15.

(4) الإسراء: 76-77.

مَوْئِلا * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[1].

وكما هو واضح من سياق الآيات الكريمة أنها تتحدث عن جدل الإنسان المفرط الذي أصبح به موسومًا، فهم ممتنعون عن الإيمان والارتكان إلى الله – عز وجل – إلا إذا أتتهم السنة الماضية في الأمم التي سبقتهم أو يروا العذاب رأي العين، ثم توضح الآيات الكريمة أن وظيفة الرسل هي البشارة والنذارة، وأن جدل هؤلاء المجادلين ليس طلبًا للحق ولا بحثًا عن الرشد وإنما يجادلون ليدحضوا بجدالهم الحق، بدليل أنهم لو كانوا طلاب حقيقة لانتفعوا من الآيات والإنذار الذي أتاهم ولم يتخذوا ذلك كله هزوا أو سخرية.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[2]. والسنة في هذه الآية الكريمة تعني الحكم النافذ والقدر المحتوم، والآية واردة في سياق الحديث عن زواج الرسول من زينب بنت جحش – رضي الله عنها – وأن أمر الله – سبحانه وتعالى– لرسوله بذلك ليس نقصًا له ولا حطًّا من قدره.. يقول ابن كثير – رحمه الله – عندما تناول الآية الكريمة: أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد (على) من توهم من المنافقين نقصًا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه. «وكان أمر الله قدرًا مقدورًا»: أي وكان أمره الذي يقدره كائنًا لا محالة وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن)[3]. وقد ورد لفظ السنة كذلك في نفس السورة الكريمة وهي تعالج سدور المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة، وتهددهم بأن يغري الله تعالى بهم رسوله فلا يجاورون في المدينة إلا قليلا، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلا * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا * سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا﴾[4].

والآيات الكريمة توضح أن أخذ الله تعالى لهم ومعاقبته إياهم إذا لم ينتهوا نافذ نفاذ القانون الثابت والقدر المقدور، ويجري عليهم كما جرى على من قبلهم (فهذه سنته تعالى في المنافقين إذا مردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه؛ أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا﴾: أي وسنة الله في

---

(1) الإسراء: 54-59.

(2) الأحزاب: 38.

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم، جـ3 صـ492، ط عيسى البابي الحلبي. وانظر في هذا المعنى الظلال جـ5 صـ2870.

(4) الأحزاب: 60-62.

ذلك لا تتبدل ولا تتغير[1] فهي سنة نافذة وقانون مطرد لا يتخلف ولا يتحول، وإذا كان ابن كثير[2] يعبر عن السنة في هذه الآيات الكريمة بالعقوبة فإني أرى أنه يقصد بها مآلها؛ أي المنتهى والمصير الذي تصير إليه عاقبة هؤلاء، فيصابون بعقوبة الأمم التي كذبت من قبل ومآل الكلام واحد وليس معناها هنا العقوبة إلا من ناحية مآل هذه السنة إلى العقوبة «فالأمور لا تمضي في الناس جزافًا، والحياة لا تجري في الأرض عبثًا، فهناك نواميس ثابتة تتحقق لا تتبدل ولا تتحول، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ويعلمها للناس كي لا ينظروا الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصلية محصورين في فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان، ويدفع تصورهم لارتباطات الحياة وسنن الوجود فيوجههم دائمًا إلى ثبات السنن واطراد النواميس ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم، ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس، وهذه الجولة الخامسة (التي يلفت فيها الله تعالى أنظار الناس إلى السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين من قبلهم وقد كانوا أشد منهم قوة) نموذج من نماذج هذا التوجيه بعد تقدير الحقيقة الكلية من أن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول ﴿**أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا**﴾[3].

والسير في الأرض بعين مفتوحة وقلب يقظ، والوقوف على مصارع الغابرين وآثار الذاهبين، وإيقاظ القلوب من الغفلة التي تسدر فيها فلا تقف، وإذا وقفت لا تحس، وإذا أحست لا تعتبر، وينشأ عن هذه الغفلة غفلة أخرى عن سنن الله الثابتة وقصور عن إدراك الأحداث وربطها بقوانينها الكلية، وهي الميزة التي تميز بها الإنسان المدرك من الحيوان البهيم الذي يعيش حياته منفصلة اللحظات والحالات لا رابط لها ولا قاعدة تحكمها، والجنس البشري كله وحدة أمام وحدة السنن والنواميس[4] ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا**﴾[5].

وقد ورد في سورة غافر كذلك لفظ (سنة)؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ***

---

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، جـ3 صـ519 بتصرف يسير.

(2) انظر معنى السنة في الآيات الكريمة عند ابن كثير في جـ3 صـ563.

(3) فاطر: 44.

(4) انظر: في ظلال القرآن، جـ5 صـ2949- 2950، بتصرف وترتيب.

(5) فاطر: 44.

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾(1).

وهذا النجم من نجوم القرآن الكريم والطائفة المتماسكة التي تسعى إلى هدف واضح من بدايات الآية الآمرة بالسير في الأرض إلى نهايات الآية العارضة لسنة الله تعالى في كونه وخلقه تتحدث جميعها عن قضية واحدة، تمهد أوائلها لأواخرها وتصدق أواخرها أوائلها في تناغم واتساق؛ فالآيات الكريمة **تدعو في** بداياتها هؤلاء المعرضين المعاندين إلى السير والنظر في عاقبة الذين كانوا من قبلهم، وقد كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارًا في الأرض، ومع ذلك لم يغن عنهم ما كانوا يكسبون؛ ذلك أنهم ما آمنوا برسلهم الذين أتوا لإخراجهم من الظلمات إلى النور، بل فرحوا بما عندهم من العلم فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فعندما عاينوا وقوع العذاب بهم قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم تكن لتقبل توبتهم ولا لتقال عثرتهم؛ لأنها سنة الله التي مضت في عباده، وحكمه في جميع من تاب بعد معاينة العذاب أنه لا تقبل توبته بل يحيق به مكره (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) (وخسر هنالك الكافرون).

ووردت لفظة سنة كذلك في سورة الفتح السورة المدنية في صدد الحديث عن الصراع بين الحق والباطل، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا**﴾(2).

فهذا التبشير من الله تعالى لأهل بيعة الرضوان بالظفر والنصر المستمر لصدق إيمانهم وإخلاصهم في ثباتهم وإيثارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب. «ولو قاتلكم»: أي بعد هذا الفتح والنصر المعجل لولُّوكم أعجازهم في الحرب فعل المنهزم، ولا يجدون من يواليهم على حربكم وينصرهم عليكم، وكذلك مضت سنة الله في كفار الأمم السالفة مع مؤمنيها، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تغييرًا» (3).

وكذلك وردت اللفظة في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ**

---

(1) غافر: 82-85.

(2) الفتح: 22-23.

(3) انظر: تفسير القاسمي (محاسن التأويل)، جـ8 صـ500، 501.

اللهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَيَتَّخِـذَ مِـنْكُمْ شُـهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِـبُّ الظَّـالِمِينَ * وَلِـيُمَحِّصَ اللهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَيَمْحَـقَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

والآيات الكريمة كما هو واضح من سياقها تدور حول الحديث عن التداول الحضاري والسنة الماضية في إصابة كل من الفريقين، حتى ينقي الله تعالى صف المؤمنين ويدحر فلول الكافرين، وفيها دعوة للمؤمنين إلى النظر في مآل المكذبين والتدبر في عاقبتهم، وفي هذا بيان لأمر الله الماضي في كونه وخلقه، وهدى لمن استجاب له وموعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ثم غرض الآيات الكريمة لتنهى المؤمنين عن الهوان والحزن فهم أعلى بإيمانهم وأرقى بيقينهم وأثبت بصلتهم بربهم جل وعلا، وتبين لهم أن مس القرح قد أصاب عدوهم كما أصابهم، وهذه حكمة الله الماضية في المداولة بين الكفر والإيمان لحكم يعلمها تعالى من مَحْص صفوف الإيمان ومحق جنود الكفر، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ويرى ابن كثير أن اسم الإشارة (هذا) يقصد به القرآن الكريم «ففيه خبر ما قبلكم، وهدى لقلوبكم وموعظة؛ أي زاجر عن المحارم والمآثم، ثم يوضح أمر هذه الحكمة الماضية والسنة النافذة في ضوء الآية الكريمة فيقول: وأنتم (إن كنتم قد أصابتكم جراح وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح).

﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾: أي نديل عليكم الأعداء تارة وإن كانت لكم العاقبة، لما لنا في ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى: **﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾**[2].

«وفي هذه الآيات الكريمة إشارة إلى سنة الله الجارية في المكذبين، ليقول للمسلمين: إن انتصار المشركين في هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة، إنما هو حادث عابر وراءه حكمة خاصة.. فالقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض؛ يردهم إلى الأصول التي يجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعًا في الحياة فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبدت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول.

---

(1) آل عمران:137-141.

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، جـ1 صـ408، بتصرف وترتيب.

والسنن التي يشير إليها السياق هنا ويوجه أيضا نظرهم إليها هي:

بيان عاقبة المكذبين على مدار التاريخ، ومداولة الأيام بين الناس والأنبياء لتمحيص السرائر وامتحان قوة الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين.

إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها، وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ولم تكن معارفهم ولم تكن تجاربهم قبل الإسلام لتسمح لهم بمثل هذه النظرية الشاملة، لولا هذا الإسلام وكتابه القرآن الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق منهم أمة تقود الدنيا.

إن النظام القبلي الذي يعيشون في ظله ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ومجريات حياتهم، فضلا عن الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها، فضلا على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعًا. وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان، إنما حملتها إليهم هذه العقيدة بل حملتهم إليها، وارتقت بهم إلى مستواها في ربع قرن من الزمان.. واتسع تصورهم لها.. ووقع في حسهم التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة فاستقامت حياتهم على التعامل مع سنن الله الثابتة، والاطمئنان بعد هذا إلى مشيئة الله المطلقة»[1].

هذا وعند تتبع أقوال المفسرين لهذه الآية الكريمة نجد أن بعضهم جعل الآية الأولى والثانية: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ جعلوا هاتين الآيتين تمهيدًا لما بعدها من النهي عن الوهن والحزن وما يتبع ذلك[2].

ويرفض صاحب المنار هذا التناول ويرى أنه (رأي ضعيف، فإن ذكر السنن بعد آيات متعددة في موضوعات مختلفة تفيد معاني كثيرة تحتاج إلى شرح طويل جدا لا معنى واحدًا كما قيل، وإن في القرآن في إفادة المباني القليلة للمعاني الكثيرة بمعرفة السياق والأسلوب ما لا يخطر على بال أحد من كتاب البشر وكلماتهم، ومثل هذا مما تجب

---

(1) انظر: في ظلال القرآن جـ1 صـ478، 479، بتصرف واختيار.

(2) انظر: تفسير الجلالين، صـ85، ط دار المعرفة، ط الثالثة 1407هـ/ 1987م. وانظر: تفسير القرآن العظيم جـ1 صـ408، والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في= وجوه التأويل جـ1 صـ367. ومحاسن التأويل جـ2 صـ416. وقل من تعرض لربط الآيات ببعضها بهذه السنة الثابتة كالألوسي في روح المعاني على اقتضاب، جـ2 صـ279، ط دار الكتب العلمية، ط الأولى 1415هـ / 1994م.

العناية ببيانه). [1]

ووردت لفظة سنة مجموعة كذلك في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[2].

والآية الكريمة واردة بعد بيان واضح وتفصيل شامل لقضية الزواج وأمر العلاقة بين الرجل والمرأة، ومن يجوز أن يكون للرجل زوج ومن لا يجوز، ثم تأتي الآية الكريمة موضحة نوعًا من لطف الله تعالى بعبادة ورحمته بخلقه بأنه يريد أن يبين لهم ويهديهم طرق الدين من قبلهم، وهو – عز وجل – عليم وسع كل شيء، وحكيم يصنع بعلمه ما يريده بحكمته.

وقفات ولمحات:

ومن خلال هذه الإطلالة السريعة في آيات السنن في القرآن الكريم يظهر الآتي:

أولا: أن لفظة سنة وردت في القرآن الكريم أحيانًا مفردة (سنة) وأحيانًا مجموعة ﴿**سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾[3].

ثانيًا: إنها أحيانًا تأتي مقطوعة (أي ليست مضافة وأحيانًا تأتي مضافة وإضافتها تكون إلى الله تعالى: ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا**﴾[4] أو مضافة لـ(نا) العظمة ﴿**وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا**﴾، وأحيانًا تضاف إلى غير الله تعالى كقوله عز وجل: ﴿**لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ**﴾[5] ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ**﴾[6].

﴿**يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾[7].

---

(1) تفسير المنار، ج1، ص 114.

(2) النساء: 26.

3 – النساء 26.

(4) فاطر: 43.

(5) الحجر: 13.

(6) فاطر: 43.

(7) النساء: 26

ثالثًا: أن اللفظة وردت في السور المكية كالحجر والإسراء والكهف وفاطر وغافر وآل عمران والنساء والأنفال والأحزاب والفتح.

رابعًا: أن السياق الذي وردت فيه اللفظة غالبًا ما يدور حول الصراع بين الحق والباطل والكفر والإيمان، وصدود الكفر أمام نور الإيمان، وأساليب الباطل أمام ضوء الحق الناصع.

خامسًا: أنها قد ترد عقب بيان جزء من المنهج التشريعي، كما ورد ذلك في سورة النساء عقب الحديث عن أمر الزواج ومتعلقاته.

سادسًا: أنها قد تأتي بمعنى العقوبة النافذة والقدر المحتوم، وسيتضح ذلك – إن شاء الله – عند الحديث عن صفات السنة الإلهية والخصائص العامة لورود السنن.

***

المبحث الثالث

السنن الربانية في السنة المطهرة

الناظر في سيرة الرسول **صلى الله عليه وسلم** كلاما وعملا – وهي الجانب التفصيلي للقرآن الكريم – يجد كيف كان صلوات الله وسلامه عليه يحسن التعامل مع سنن الله في كونه وقوانينه في عباده، فما من معركة إلا والرسول يتعامل مع الأسباب؛ يجعل مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقائدا، ثم يقبل على الله تعالى ملحًّا في دعائه مبتهلا في رجائه، فهذا نوع من إدراك سنن النصر التي تعتمد على أسباب مادية وأسباب معنوية، وهذا الأخذ بالأسباب في حد ذاته سنة من سنن الله تعالى في الكون.

وفي مجال التربية: حين يربي الرسول أصحابه على قيمة من القيم تلمح استصحاب هذا الإدراك القوي للسنن التي بثها الله تعالى في خلقه، فحديثه عن اتباع سنن مَنْ قبلنا من الوضوح بمكان، وإرشاده لمن يستجديه من الناس إلى سنة الله في الرزق واضحة عندما يأمره بأن يذهب فيشتري قدوما ويحتطب، وإرشاده الأعرابي إلى عقل الناقة وربطها عندما قال له: يا رسول الله، أأتركها وأتوكل على الله، قال: (بل اعقلها وتوكل)[1].

وتصويره للمجتمع الذي يتعاون على البر والتقوى، والذي يتعاون على الإثم والعدوان بمجتمع في سفينة في قوله: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إن أرادوا الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا﴾ [2]. تصوير دقيق لسنن الله تعالى في الأجسام والمجتمعات، فإذا كانت السفينة يحكمها قانون الطفو فإن المجتمع يحكمه قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكقوله: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[3].

---

1 – انظر سنن الترمذي: 668/3, وقال الألباني حسن, وصحيح ابن حبان: 510/2,.

(2) صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب (هل يقرع في القسمة والاستهام فيه). والترمذي، كتاب الفتن. وأحمد (أول مسند الكوفيين).

3 – مسلم 1999/4.

وكقوله: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» [1].

ومن أروع ما يدل على حرص الرسول على تعلم أصحابه وأمته إدراك السنن الإلهية قوله لزياد بن لبيد: بعد أن ذكر شيئا وقال وذلك عند ذهاب العلم، قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا، وأبناؤنا يقرءونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء﴾ [2].

وهذا الحديث الشريف يوضح إرشاد الرسول لأصحابه إلى أمر السنن التي تعم الجميع وتمضي بلا استثناء، وفي هذا إجابة عن السؤال الحائر على شفاه المسلمين كيف يكونون مسلمين وتظل أحوالهم بهذا التخلف والتأخر والجمود؟ وقد صاغ شوقي ذلك في قوله:

وقل يا رسول الله يا خير مرسل ... أبثك ما تدري من الحسرات

شعوبك في شرق البلاد وغربها ... كأصحاب كهف في عميق سبات

بأيمانهم نوران ذكر وسنة ... فما بالهم في حالك الظلمات؟!!

فليس المراد من قوله ﷺ: «**وذلك عند ذهاب العلم**» ارتفاع المعارف والثقافة من الكتب والرؤوس؛ بل ارتفاع الارتباط بينها وبين السنن الكونية وإحسان التعامل بهذا العلم مع تلك السنن.

والصحابة الكرام بدورهم كانوا على علم ووعي بهذه السنن، ومن أبرز الذين ظهرت في حياتهم وأقوالهم هذه السنن عمر بن الخطاب ﷺ الذي قال عنه ابن مسعود عندما مات: «مات تسعة أعشار العلم، فقيل له: أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة؟! فقال: لم أرد علم الفتيا والأحكام، إنما أريد العلم بالله تعالى﴾ [3].

وفي علم الصحابة بعلم السنن الإلهية يقول صاحب المنار: (وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها. يعني أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب الغربية منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب و غيرها بما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى، ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسبب سبقهم للأمم التي استولوا عليها، لذلك قال: وما كانوا

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب (تشبيك الأصابع في المسجد وغيره). ومسلم، كتاب البر والصلاة والآداب.

(2) ذكره ابن كثير، جـ2 ص 76.

(3) تفسير المنار، جـ 4/ 115, وانظر الإحياء 23/1.

عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم الفطري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها، ولما اختلفت حالة العصر اختلافا احتاجت معه الأمم إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرها كانت محتاجة أيضا إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية أو علم الاجتماع أو علم السياسة الدينية، سمِّ بما شئت فلا حرج في التسمية) [1].

وهكذا يتضح علم الصحابة الكرام بهذا العلم الذي هو من أدق أنواع العلوم وأولاها بالحرص والانتفاع، والذي ما فقد المسلمون توازنهم بحق إلا بعد أن فقدوا الاستفادة منه.

***

(1) المرجع السابق نفسه الصفحة نفسها.

المبحث الرابع

أهمية دراسة السنن والآثار المرتبة على إهمالها

النظر في السنن الإلهية فريضة وضرورة، فهو فريضة للآيات الكريمة التي تحث على النظر والسير والاعتبار بمن خلوا، والتفكر في آثار الذاهبين؛ فالسعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفسه. وضرورة للظرف الراهن الذي يمر به المسلمون اليوم، ولأمر ما كانت توجيهات القرآن الكريم للمسلمين عقب كل قصة من قصصه في خلاصة نادرة كأنها اختزال للحدث كله وإشارة للاحقين للانتفاع من أحوال السابقين، فعندما تقرأ قصة قارون في سورة القصص تجد في نهايتها ما يشبه السنة العامة والقانون المطرد في قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1].

وهكذا في كل قصة من قصص القرآن الكريم حتى يظل عطاء القرآن الكريم ماضيا ما مضى الليل والنهار، ومعطاء ما وجد من يعي ويعتبر، وقليل من العلماء السابقين الذين توقفوا عند النظر في سنن الله تعالى والكتابة حولها، ومن أبرز هؤلاء صاحب (الإحياء) حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله، الذي يقسم العلم إلى محمود ومذموم، ويقول في بيان قدر المحمود من المعلوم المطلوب: (وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى مادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه، بقدر ما يسر لهم وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتعاون تقدير الله تعالى في حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطر في الكتب ويعين على التنبيه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة.. هذا في أول الأمر ويعين عليه في الآخرة المجاهدة والرياضة، وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء؛ ليتضح منه لكل سائح إلى طلبه بقدر الرزق لا يقدر الجهد، ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد؛ فالمجاهدة والرياضة ومفتاح الهداية لا مفتاح لها سواه] [2].

---

(1) القصص: 83.

(2) انظر: إحياء علوم الدين، جـ1 صـ45، ط عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

فانظر – رعاك الله – إلى مدى أهمية هذه النظرة إلى هذا الجانب من جوانب فعل الله تعالى في خلقه، والتي جعلها الإمام الغزالي مساوية للعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وهل سنن الله في خلقه وكونه إلا صنف من أفعاله سبحانه؟ ومن الذين لمحوا إلى أهمية دراسة السنن وضرورة التعرض لها والإفادة منها، حكيم الإسلام الأستاذ الإمام محمد عبده – رحمه الله تعالى – والذي وصف تفسيره أنه (يبين حكم التشريع وسنن الله في الإنسان، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان». ويوازن بين هدايته وما عاين المسلمون في هذا العصر؛ إذ يقول رحمه الله: «إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة لتستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أجمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون بها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال.. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحمل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها[1].

وجعل رحمه الله المرتبة العليا في فهم تفسير القرآن الكريم، وتفسيره لا يتم إلا بأمور من أهمها (علم أحوال البشر) أو علم السنن الإلهية، (فقد أنزل الله القرآن وبيَّن فيه كثيرًا من أحوال الخلق وطباعهم والسنن الإلهية في البشر؛ فقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها، فلابد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر وأطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها علم التاريخ بأنواعه. وأجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية وعن آياته في السموات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علمًا، وأمرنا بالنظر والتفكر والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده، لا بما حواه من علم وحكمة﴾ [2].

وتظهر أهمية دراسة السنن الإلهية في الكون والقرآن الكريم عندما يظهر أن هذه السنن بصفاتها السابقة وسماتها الثابتة تتلاقى مع السنن الكونية التي تجري على سائر البشر، فتعلم أن الثانية وجه آخر للأُولى؛ بل وطريقة مأمون

---

(1) تفسير المنار، جـ4 صـ114، 115، بتصرف يسير.

(2) انظر: تفسير المنار، جـ1 صـ20، 21، بتصرف يسير.

للدلالة على الله تعالى من أقرب طريق وهو طريق النظر في (الأنفس والآفاق) التي قال عنها القرآن الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

فالعلم بالسنن الإلهية من أعظم الوسائل لكمال العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وأقرب الطرق إليه وأقوى الآيات الدالة عليه، وأعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء، وإنما يرجى كمال الاستفادة منه إذا نظر فيه إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعًا[2].

وهذا النظر إلى السنن يجعل الإنسان أقدر على التعامل مع سنن الكون ونواميس الحياة الثابتة بلا تغير، المطردة بلا توقف، الماضية على الأفراد والجماعات والشعوب، وهذه المعرفة لسنن الله تعالى في الآفاق والأنفس لا تقل في أهميتها عن معرفة قوانين المادة والتعامل معها، «فإن لسلامة النظرية أثرًا هامًا في الوصول إلى الحل بلا توقف الحل على صحتها ومقدار وضوحها.. ومن أكبر الظلم الذي ينزله الإنسان بنفسه أن لا يرى العلاقة التسخيرية الموجودة بين الإنسان والكون والمجتمع (الآفاق والأنفس)، فيهمل نفسه ولا يضعها في المكان الذي يسخر الآفاق والأنفس على أساس السنن المودعة فيها[3].

وإذا نظرنا إلى مجال من مجالات المادة كالطب مثلا، أدركنا مدى أهمية دراسة السنن ومعرفتها؛ «فالطب بما وصل إليه من كشف قوانين الصحة والمرض العضوي للكائن الحي مكن الطبيب بواسطة هذه القوانين وتسخيرها من التغلب على الأمراض والآفات، فالذي يعلم هذه القوانين يمكنه أن يستخدم إزاء المرض إجراءات فورية في الدواء والغذاء والعمل، وأخرى مرحلية لإعادة التوازن إليه. إن الذي يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل هو من يعرف القوانين التي يخضع لها الكائن الحي، بينما إنسان آخر لا يعرف القوانين ولا كيفية التدخل لإعادة التوازن، فهو ينظر إلى المريض ويرى آثار المرض من الآلام والعجز عن الحركة وعن القيام بمهمات الحياة اليومية، بينما يرى هذه الآثار واضحة مؤلمة لا يستطيع أن يتدخل فيها، ولا يمكنه أن يدرك مقدار الخطورة، ولا الوسائل القريبة أو البعيدة التي ستنقذ هذا المريض أو تحطمه، إنما يملك فقط أن يذرف الدمع بغزارة على آلام من يحب»[4].

---

(1) فصلت: 53.

(2) انظر: تفسير المنار، جـ7 صـ417، بتصرف يسير.

(3) حتى يغيروا ما بأنفسهم، صـ14، 15، بتصرف وترتيب.

(4) السابق، صـ17، بتصرف يسير.

وإذا تجاوزنا هذا الجانب الملاحظ من قوانين المادة والذي لا يختلف عليه اثنان؛ لأنه واقع محسوس ومعيش ملموس عند الجميع، إذا تجاوزنا ذلك إلى أمراض المجتمع من تحلل خلقي للفساد وعدم قدرة على الحياة حياة صحيحة صحية أدركنا أنه يوجد تشابه كبير بين الجسد الإنساني والجسد الاجتماعي، في احتياج كل منهما إلى الطبيب المداوي والنطاسي الحاذق الذي يشخص الداء ويصف الدواء، حتى يلبس مريضه ثوب الصحة والعافية ويشفى شفاء لا يغادر سقما، والعجيب في ذلك أن الناس يعون تمام الوعي مدى حاجتهم إلى معرفة قوانين الطب لفحص أجسادهم، وقوانين الهندسة لتصح حياتهم، ولا يدركون الحاجة الماسة إلى قوانين المجتمع أو «السنن الإلهية». وقد نجد أطباء أجساد كثيرين، لكننا لا نجد أطباء مجتمع على علم بقوانين الله تعالى في الاجتماع العمراني والاختلاط البشري، حتى أثر ذلك في قواعد الفكر لا أقول عند عامة الناس بل عند خواصهم وخواص خواصهم من العلماء، فضلا عن عامة الناس.

إن هؤلاء جميعا الذين نراهم حريصون على المجتمع وصحته وسلامته وإنعاشه من غيبوبته، لا ينقصهم إخلاص ولا حرارة حماس، وإنما ينقصهم فهم شمولي يستوعب التعامل مع نواميس الكون وسنن الحياة. «إنهم يبكون على الإسلام الذي أخذ أهله ينحسرون عنه كما يبكي المحب الجاهل على المريض الذي اشتدت عليه وطأة المرض، بينما كان نفعه لهذا المريض أجدى لو سعى ليعلم طريقة علاج المرض، ذلك أن الله تعالى ما أنزل داء إلا له دواء، وما يقال في أمراض الجسم يقال في أمراض المجتمع»[1].

وعدم إدراكنا لهذا الترابط الموجود بين معطيات الكون هو الذي حرمنا الاستفادة من الكثير من خيره؛ بل يوقعنا في الكثير من شره؛ لأن قوانين الله تعالى لا تحابي ولا تجامل؛ بل يمضي على اللاحقين ما مضى على السابقين إذا سلكوا نفس سبيلهم ونسجوا على منوالهم.

وإذا تجاوزنا عصر الصحابة الكرام إلى من بعدهم إلى الآن نجد الذين عنوا بالدراسات والكلام في علم السنن بصفة عامة لا يتجاوزون أصابع اليدين، ومن هنا أصبحت نظرتنا إلى الكون والحياة بغير المقياس الذي أرادنا الله تعالى أن نقيس به؛ فالقرآن الكريم يقول عن نفسه: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا.وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[2] فهل فهم المسلمون هذه المقاييس التي يعتمدها القرآن الكريم في حكمه على الأشياء حتى يصلوا إلى (التي هي أقوم)؟!.

---

(1) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص 22.

(2) الإسراء: 9.

هناك خلاصات كثيرة وعصارات من أحوال الأمم والشعوب تحدث عنها القرآن الكريم، فما أفاد المسلمون منها قليلا ولا كثيرا، يحدثهم القرآن عن أمم فنيت لأسباب وتحللت قواها وضاع مجدها لأنها لم تأخذ بأسباب البقاء، ونرى المسلمين يقومون بنفس الدور الذي قام به السابقون من الأمم الماضية دون أن يتعظوا، واتبعوا سننهم ونسجوا على منوالهم على الرغم تشريح القرآن الكريم لأسباب البقاء والفناء للأمم والشعوب في آيات كثيرة، وما خبر الملأ الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت عنا ببعيد!!.

إن القرآن الكريم ملئ بهذه الخلاصات المعتصرة من تجارب السابقين، اقرأ مثلا قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1] بعد أن ساقت السورة الكريمة قصة قارون لتؤكد للمسلم أن الاستبداد السياسي والحكم الفردي بدعائمه وقوائمه وخيم العاقبة، وأن الغلبة في النهاية للمتقين، فهل انتفع من هذه الخلاصة المسلمون في طريقة حكمهم أم أخذوا من فرعون وقارون أهم الصفات وأخص السمات.

واقرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[2] لترى فيه القانون الثابت في آثار الاستقامة.

واقرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ.وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾[3] لنرى باطمئنان أن النصر في النهاية للحق والظفر في الخاتمة للصدق. واقرأ ﴿**إِن تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[4]، ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾[5] و﴿**إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[6] لنرى بوضوح ملامح قانون النصر، ونرى معه كم أفدنا نحن المسلمين من هذا القانون في تعاملنا مع غيرنا. واقرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا**

---

(1) القصص: 83.
(2) يوسف: 90.
(3) يونس: 81، 82.
(4) محمد: 7.
(5) آل عمران:126.
(6) آل عمران: 160.
(7) الرعد: 11.

﴿بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] لنرى بجلاء لا يساوره غبش، ووضوح لا يعتليه شك ضوابط قانون التغيير، وكم أفدنا نحن المسلمين الراغبين في تغيير أحوالنا وأوضاعنا الراهنة من هذا القانون الإلهي والسنة الماضية.

واقرأ قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[2]، وقوله: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾[3] وقوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[4]، وقوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[5] وقوله عز من قائل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾[8].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لترى القانون الثابت في عدم صلاح عمل المفسدين، وقوله تعالى في الحديث عن قانون الشكر والشاكرين: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لنرى من خلال هذه الآيات الكريمة سمات ثابتة لأمر الله تعالى في الشاكرين والكافرين.

واقرأ قوله تعالى في سنة البقاء والفناء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لترى في هذه الآيات الكريمة لونا من ألوان التشريح لأسباب البقاء وعوامل الفناء من خلال رصد أمة من الأمم تسرب إليها الوهن وسرى فيها الخور.

---

(1) الأنفال: 53.
(2) آل عمران: 140.
(3) المائدة: 100.
(4) إبراهيم: 7.
(5) النحل: 112.
(6) سبأ: 13.
(7) الرعد: 17.
(8) النساء: 123.

واقرأ كذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[1] لترى قانونا من قوانين الله تعالى في عدم إهلاك المصلحين، وهذا وعد من الله تعالى بذلك وفرق بين الصلاح والإصلاح؛ فالإصلاح كما هو متعد في المبنى فهو متعد في المعنى، كذلك الفعل الرباعي أصلح الشيء يصلحه إصلاحا، ومعناه انتقال الصلاح من صاحب الدعوة إلى غيره، ونجد هذا الترابط أكثر ظهورا في قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**﴾[2] فهناك كما هو واضح ارتباط بين صدر الآية (يمسّكون) الذي يدل على تعدي الإمساك إلى التمسيك، وعَجُزها (المصلحين) الذي يدل على انتقال الصلاح إلى فرد آخر بعد الداعية المصلح.

وإذا كان الله قد تعهد بعدم إهلاك المصلحين فإن هذا الوعد لا ينسحب على الصالحين، لجوابه ﷺ للسيدة عائشة عندما سألته: يا رسول الله، «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث﴾ [3]. ونستطيع أن نقول عن هذا القانون أو تلك السنة: (قانون الصالحين والمصلحين).

ولو قرأنا مثلا قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلاَّ من رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[4] لوجدناها ترصد قانونا من قوانين الله تعالى في طبائع البشر، وهو اختلافهم المستمر الذي لا يقف عند حد.

****

(1) هود: 117.

(2) الأعراف: 170.

(3) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج. ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(4) هود: 119.

الفصل الثاني

خصائص السنن الربانية وحجيتها ومواردها

المبحث الأول

خصائص السنن الربانية

ما زلنا بحاجة إلى معرفة خصائص هذه السنن؛ حتى يتسنى لنا الاستفادة منها ونحسن التعامل معها على أساس واضح ونهج سليم، ويمكن حصر هذه الخصائص فيما يلي:

السنن الإلهية حاكمة على الجميع:

والملاحظ من استقراء لفظ (سنة) ومتابعة السنن الواردة في القرآن الكريم أن السنن الإلهية حاكمة على جميع الأفراد، وهي صورة أخري من صور فعل الله تعالى تقابل الصورة الأولى والتي تمثل السنن الكونية، فإذا كان القرآن الكريم يقول في السنن الكونية – أعني الظواهر الطبيعية –: ﴿**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[1]، ويقول: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[2] بما يظهر للرأي حاكمية هذه الظاهرة الكونية. ويقول في وصف جريان الشمس على قانون منضبط ونظام ثابت: ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[3] وكما أن السنن الكونية أو الظواهر الكونية حاكمة على الجميع فتغلي المياه عند درجة مائة، وتتجمد عند درجة صفر، وتعطي هذه النتيجة لكل من يتعامل معها بغض النظر عن دينه ومذهبه، فكذلك السنن الإلهية في الأفراد والأمم والمجتمعات، فإذا وقفنا عند قانون من قوانين الله تعالى –كقانون النصر– نعلم أن له ضوابط ومعالم تنسحب على الجميع دون مجاملة ولا محاباة.

---

(1) الحج: 5-6.

(2) الأنبياء: 30.

(3) يس: 38-40

والناظر في حياة الرسول وسيرته يجد هذا المعنى واضحًا، فعندما أخذ الصحابة سنة الله في النصر مثلا آتى النصر لهم أُكُله وأعطى ثمره، وعندما خالفوا أمر الرسول وترهلت قبضتهم عن عنصر من عناصر النصر لم تنخرم لهم القاعدة ولم تتبدل لهم السنة؛ بل حكمت عليهم وفيهم أعظم خَلْق الله ﷺ. ولعل أبرز مثال على ذلك موقف المسلمين في غزوة أحد عندما خالفوا أمر رسول الله وتركوا حماية ظهورهم من أعلى الجبل – أقصد فصيلة الرماة – فقد تبدل الأمر وتحول من نصر إلى هزيمة؛ لأنهم لم يحققوا سبب النصر من السمع والطاعة المطلقة للرسول. «لقد كان المسلمون السابقون على ثقة من نصر الله تعالى لهم، وكانت موقعة بدر أول تباشير هذا النصر، فلما رأوا أن الله تعالى نصرهم على قلتهم وضعفهم بعد ما كان من دعاء الرسول وتضرعه واستغفاره ربه، زادهم ذلك إيمانًا بأنهم هم المنصورون، ولكن وقع في نفوس الكثيرين إن لم نقل في نفوس الجميع أن نصرهم سيكون بالآيات وبالعناية الإلهية الخاصة من غير التزام بالسنن الإلهية في الاجتماع البشري، وأن وجود الرسول فيهم ودعاءه على أعدائهم هما أفعل في التنكيل بالكفار من التزام الأسباب الظاهرة التي أهمها طاعة القائد والتزام النظام العسكري وغير ذلك، ولكن الإسلام دين الفطرة لا الفوارق. هذا البيان الإلهي في هذه الواقعة تمكن في النفوس ما لا يتمكن لو لم يكن مقرونًا بواقعة مشهودة لا مجال معها لتأويله ولا لتخصيصه أو تقييده»[1].

ذلك أن السنن سنن عامة تنطبق على البشر جميعًا، وليست خاصة بطائفة دون طائفة ولا لجيل دون جيل، والذي يؤكد عمومية الموضوع أن الله يقول للرسول: ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾[2] ويصور الرسول هذا الموضوع بصورة من يرى المستقبل من خلال السنن حين يقول: «ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين من قبلكم (أهل الكتاب) حذو القذة بالقذة» [3] حتى إنه يصل في المشابهة إلى أن يحشرهم في جحر الضب، ومثل هذا النظر إلى الموضوع هو الذي نفتقده الآن، وعلينا أن نكتسبه. وهذه النظرة القرآنية هي التي تجعل المسلم قادرًا على الاعتبار الذي يلح عليه القرآن، فأمامنا تجارب القرون الماضية، تجارب كثيرة تظهر فيها سنن الأقوام التي يخضع لها المسلمون أيضًا كأي قوم من الأقوام، وهذا النظر القرآني يجرد الإنسان من ملابساته ويرجعه إلى أصله المجرد الذي يخضع للسنن»[4].

---

(1) انظر: تفسير المنار، جـ4 صـ97، 98، بتصرف يسير.

(2) الأحقاف: 9.

(3) الحديث رواه أحمد، مسند الشاميين.

(4) انظر: حتى يغيروا ما بأنفسهم، للأستاذ جودت سعيد، صـ27، 28، ط مطبعة الحسين الجديدة، ط الثالثة، 1397هـ 1977م، بتصرف واختيار.

فالسنة الإلهية تجري على الجميع لا فرق بين مجتمع ومجتمع، ولا فرق بين ديانة وديانة، ولا فرق بين جيل وجيل، وإلا لما دعا القرآن الكريم إلى التفكر في آثار السابقين. فالذي يفهم السنن الإلهية وعمومها يملك القدرة على التعامل مع هذه السنن، ويحسن الاستعداد لنتائجها، وقد قال قوم جهلوا ذلك ندمًا في الآخرة: ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[1]

السنن الربانية مطردة:

كما تتسم السنن الإلهية (بالحاكمية والهيمنة) على الجميع، فهي أيضًا مطردة لا تتخلف ولا تتبدل، ومن هنا أمرنا الله تعالى بالاتعاظ والاعتبار ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾[2] وذلك بعد أن ذكر لنا حال يهود بني النضير؛ أي « اتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجه لا تكاد تهتدي إليه الأفكار، واتقوا مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصي، واعتبروا من حالهم في غدرهم واعتمادهم على غير الله تعالى الصائرة سببًا لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم، ومفارقة أوطانهم كارهين إلى حال أنفسهم، فلا تعولوا على تعاضد الأسباب وتعتمدوا على غيره عز وجل؛ بل توكلوا عليه». [3] وحفل القرآن الكريم بالآيات التي تثبت هذا المعنى وتقويه، وبعض الناس يخرج النكبات التي تصيب الصالحين عند عدم تعاملهم مع الأسباب يخرجها على أنها ابتلاء ورفع درجات أو تكفير سيئات وما أشبه هذا الكلام، ولكن الصواب أنه راجع إلى عدم تخلف السنن واطرادها في كل حال «إن القرآن الكريم بين للناس أن سنن الله تعالى في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة، ومن سار على سننه ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحدًا وثنيا، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقًا نبيا, وكأن بعض المسلمين لم يكونوا قد حفظوا ما ورد في السور المكية من إثبات سنن الله في خلقه، وكونها لا تتبدل ولا تتحول، أو حفظوه ولم يفقهوه ولم يظهر لهم انطباقه على ما وقع لهم في أُحُد.. لذلك صرح لهم بأن سننه عامة جرى عليها نظام الأمم من قبل، وأن ما وقع لهم مما يقضي حكمة عليهم مطابق لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل﴾ [4]. وكانت عناية القرآن الكريم بهذا المعنى أي اطراد السنن الإلهية.عظيمًا، فبعد أن تحدث عن الذين اعتدوا في السبت من بني إسرائيل قال: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا لِّمَا بَيْنَ**

---

(1) الملك: 10.

(2) الحشر: 2.

(3) انظر: روح المعاني للألوسي، جـ28صـ235، ط دار الكتاب العلمية، ط الأولى، 1415هـ 1994م.

(4) انظر: تفسير المنار، جـ4 صـ116، بتصرف يسير. وانظر في هذا المعنى: صفحات 45، 134 من نفس الجزء. و جـ1 صـ285 – 349، جـ2 صـ 214، 215، 238.

يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]

وفي (سنة) الرسول ما يؤكد هذا المعنى؛ فقد صح عن رسول الله فيما ذكره ابن كثير في تفسيره عن زياد، أنه قال: ﴿ذكر النبي شيئًا فقال: وذلك عند ذهاب العلم، قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا وأبناؤنا يقرؤونه لأبنائهم إلى يوم القيامة؟ فقال: ثكلتك أمك يا بن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيها بشيء﴾[2].

من هنا نستطيع أن نقول:

1- إن السنن الإلهية ثابتة لا تتغير ولا تبدل.

2- حاكمة لا تحابي ولا تجامل.

3- مطردة لا تتوقف ولا تتأجل.

4- عامة لا تنتقي ولا تنتخب.

***

(1) الأعراف: 65، 66.

(2) ذكره ابن كثير عند تفسير الآية 66 من سورة المائدة، الجزء 2 ص 76، ط الحلبي، وقال: هكذا رواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع به نحوه، وهذا إسناده صحيح.

المبحث الثاني

حجية السنن الربانية

سبق أن تناولت الدراسة الحديث عن خصائص السنن الربانية من الشمول والاطراد وعدم التبدل أو التحول، ويطرأ هنا سؤال عن السنن الربانية وعن دلالتها قطعية ؟, والناظر في آيات السنن الربانية يجد في البداية أنها قطعية الثبوت، وذلك لأنها جزء من آيات القرآن الكريم الذي ثبت كله ثبوتا قطعيا، أما دلالتها من حيث كونها حجة يعتمد عليها ويستدل بها فإنها أيضا قطعية الدلالة على المراد منها؛ وذلك لكثرة تكررها والتأكيد عليها وعلى مدلولاتها، والأمر في خواتيمها بالاعتبار والاتعاظ سواء كان ذلك في الآيات التي ورد فيها لفظ «السنن» صراحة، أو الآيات التي تناولت تفصيل السنن كالتداول الحضاري، والأجل، والتسخير، والإهلاك، وشكر النعم وكفرها، والتغيير، والترف والمترفين، إلى غير ذلك من السنن المبثوثة في القرآن الكريم.

ولو لم تكن السنن الربانية قطعية الدلالة لما أمر الله تعالى بالسير في الأرض والنظر فيمن جرت عليهم سننه عز وجل كقوله: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾[1].

ومن هنا فهم العقلاء هذه الحجية للسنن الربانية، فاستدلوا بها وأقاموا من خلالها الحجة على أقوامهم؛ فمؤمن آل فرعون يقول لقومه ساحبًا حكم من سبق عليهم لتحققهم بصفاتهم: ﴿**يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ**﴾[2].

---

(1) آل عمران: 137-141.

(2) غافر: 30-34.

فالذي يتأمل هذه الآيات الكريمة يجد كيف استدل مؤمن آل فرعون بالسنن التي مضت في الأمم السابقة، (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم).

«وحقيقة السنن التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، وعلى أساس هذا يكون الاستدلال بالسنة. يقول ابن تيمية –رحمه الله–: وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، وهو الاعتبار المأمور به في القرآن كقوله تعالى: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأبْصَارِ**﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأبْصَارِ**﴾[2].

وإنما تكون العبرة بالقياس والتمثيل، فإذا عرفت قصص الأنبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعاقبة والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدقهم كان سعيدا، ومن كذبهم كان شقيا، وهذه سنة الله وعادته، ولهذا يقول الله في تحقيق عادته وسننه وأنه لا ينقضها ولا يبدلها: ﴿**أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ**﴾[3].

هذا تطبيق الاعتبار والقياس، ثم قال: (أم لكم براءة في الزبر، فنفى الدليل العقلي والسمعي فيقول: فإذا لم يكونوا خيرا منهم فكيف ينجو من العذاب مع مماثلتهم لهم؟)[4].

وهكذا يتضح أن السنن قطعية الدلالة على مرادها؛ لأنها لو لم تكن كذلك لما كانت مطردة سارية على الجميع.

---

(1) آل عمران: 13.

(2) الحشر: 2.

(3) القمر: 43.

(4) انظر النبوات, لابن تيمية:265/1,ط المطبعة السلفية– القاهرة 1381هـ , وقدر الدعوة، للأستاذ رفاعي سرور، صـ71، 72، ط مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، 1412هـ 1992م.

السنن الربانية والنسخ:

وإذا كان الأمر كذلك فإن النسخ -الذي هو بمعنى الإزالة والمحو.لا يطرأ على السنن الربانية؛ وذلك حتى تستمر خصائص هذه السنن وفعاليتها في الأمم الحاضرة والآتية كما انطبقت على الأمم الماضية، فعموم السنن ينافي نسخها، واطرادهما أيضا ينافي نسخها، فكل خصيصة من خصائص السنن الإلهية تثبت أن النسخ لا يتفق مع السنن ولا يجري عليها، وإلا فإن معظم موارد السنن الربانية يكمن في القصص القرآني والأمثال، وهذه الأبواب لا يدخلها النسخ باتفاق العلماء؛ لأنها أخبار والجانب الإخباري في القرآن لا يتطرق إليه النسخ.

السنن الربانية والإعجاز:

قلنا إن السنن تجري حسب نظام دقيق منضبط لا يتغير ولا يتحول ولا ينخرم لسبب من الأسباب، فهل هذا الانضباط والسير المطرد ينافي الإعجاز أو المعجزة؟ الواقع أن السنن الربانية إذا كانت تجري (بحسبان) وعلى نظام منضبط، فإن المعجزة أيضا تجري حسب نظام منضبط، لكن الخط الذي تجري فيه السنن غير الخط الذي تجري فيه المعجزة، والمجال الذي تعمل فيه السنن غير المجال الذي تعمل فيه المعجزة؛ فالمعجزة (أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة إثباتا له في مدعاه، أو أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي وعدم المعارضة، أو هي أمر قصد به إظهار صدق من ادعى النبوة والرسالة)[1].

وتلك المعجزات التي يؤيد الله تعالى بها أنبياءه ومرسليه هي ما تسمى الخوارق، أو تسمى السنن الخارقة، وهي التي تقابل السنن الجارية، فإذا كانت السنن الجارية تمضي حسب ناموس منضبط ظاهر للناس عرفوه وألفوه، فإن المعجزة أو السنن الخارقة أيضا تجري حسب ناموس منضبط لكنه مغاير للناموس الذي تجري عليه السنن الجارية (فالله تعالى له من طلاقة القدرة بحيث يخفي الظاهرة عن القانون الذي يحكمها، سواء أكان ذلك في الطبيعة أم كان في الأحياء أم كان في الاجتماع والسلوكيات؛ ففي مجال الطبيعة مثلا ما ورد في الشرع من حادثة انشقاق القمر وانفلاق البحر، وحجب السكين عن طبيعتها وهي القطع، وحجب النار عن طبيعتها وهي الإحراق. وفي مجال الحياة وقوانينها نرى إبراهيم – عليه السلام – يلقى في النار ولا يحترق ولا يموت من نقص الأكسجين، ويونس – عليه السلام – يعيش في بطن الحوت تحت طبقات الماء فترة من الزمن ولا تتأثر حياته بذلك.

وفي مجال الاجتماعيات نرى أن موسى – عليه السلام – ينتصر بقلب العصا ثعبانا، وأن سيدنا محمدا ينتصر بمعونة خمسة آلاف من الملائكة[2]. ولا تعارض هنا بين السنن الثابتة الجارية والسنن الخارقة؛ فكل يجري حسب

(1) شرح المقاصد، للعلامة سعد الدين التفتا زاني، ج3 ص273، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط أولى 1422 هـ، 2001م.
(2) مدخل إلى دراسة السنن الإلهية، ص23، وانظر: الهجرة بين سنة الله الجارية والخارقة، ص19.

قانونه المنضبط لا يحيد عنه ولا يميد.

والسنن الجارية كما رأينا في خصائصها لا تستثنى ولا تحابي (حتى معجزة الأنبياء التي قد تفهم على أن معناها قائم على خرق السنة، فإننا نجد أن معناها لا يقوم أصلا إلا على أساس حقيقة السنة. يقول ابن تيمية: وحقيقة الأمر أن ما يدل على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها، فلا بد أن يكون مختصا بها ولا يكون مشتركا بين الأنبياء وغيرهم، والرب تعالى لا ينقض عادته التي هي سنته في التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصه بها، قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره ويختص به. ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبياء ويختصون بها، والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، فمن خصه بذلك كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره ما يناسب ذلك، فيستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الاختصاص بالنبوة، وتلك سنته وعادته في أمثاله؛ يميزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم، ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص الذين هم الأنبياء مثلا، فلم تكن له سبحانه عادة بأن يجعل مثل آيات الأنبياء لغيرهم حتى يقال: إنه خرق عادته ونقضها؛ بل عادته وسنته المطردة أن تلك الآيات لا تكون إلا مع النبوة والإخبار بها مع التكذيب بها أو الشك فيها[1]. فالمعجزة شيء لا يخالف العقل ولكنه يخالف المألوف والمتواتر في المحسوس، فإذا كان كل عمل من الأعمال خلقا مباشرا في إرادة الله تعالى فلا فرق في حكم العقل بين مرفوع المعجزة ووقوع المشاهدات المتكررة في كل لحظة[2]. فالإعجاز لظواهر الكون لا يخرق السنن الجارية وإنما يمضي هو حسب قانون خاص به، لكن هناك علاقة أكيدة بين السنن الجارية والسنن الخارقة.

العلاقة بين السنن الجارية والسنن الخارقة:

لاشك أن هناك علاقة وطيدة وعروة وثقى بين السنن الجارية والسنن الخارقة، فإن السنن الجارية والسنن الخارقة يخرجان من مشكاة واحدة، ومصدر الجميع الله – سبحانه وتعالى– وما هذه السنة وتلك إلا أثر الإظهار لأفعال الله تعالى، وإذا كانت السنن الخارقة تمضي على غير المألوف للناس، فإن السنن الجارية تمضي على ما يألفون ويعرفون لذلك تعبدهم الله تعالى بالتعامل مع هذه السنن، وهم يأثمون إذا قصروا في التعامل أو تركوها دون استفادة منها، فالمسلم المعاصر لا يعيش الآية في زمن المعجزات وإنما يعيش في زمن السنن الجارية التي لا تتوقف ولا تتأجل، وهو مطالب شرعا بالتعامل مع هذه السنن الربانية ليثير الأرض ويعمرها ويحي الزرع والضرع، ويكون

(1) انظر:النبوات: 1/ 233, وقدر الدعوة، ص73، 74 بتصرف واختيار.

(2) الفلسفة القرآنية، للأستاذ العقاد، ص18، ط دار الهلال، بدون تاريخ.

بحق خليفة الله تعالى في أرضه، فإن خيرات الله في الأصل للمؤمن ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[1] ولعل حديثا يأتي عن هذا الملمح في جانب منهج التعامل مع السنة الربانية بإذن الله تعالى.

العلاقة بين السنن الربانية الجارية والإرادة الإلهية:

ولا يظن ظانٌّ أن السنن الجارية لأنها تجري بثبات واطراد أنها تجري من ذاتها أو أن فعلها فعل ذاتي، فهذا فهم غير صحيح؛ لأن السنن الجارية على الرغم صفاتها هذه إلا أنها في النهاية مربوبة لله تعالى، والمسلم مدرك أن شيئا لا يقع في الكون إلا بقدر الله تعالى (والحوادث كبيرها وصغيرها لا يمكن أن يحدث إلا بأمر الخلق المباشر من إرادة الله تعالى، فلا ينساق في العقل أن الحادثة تحدث بفعل الأسباب أو النواميس ثم بفعل الإرادة الإلهية؛ لأن الناموس لا يملك وحده قدرة الانطباق والتوافق التي يسبب بها ألف حادث على نسق واحد، ولا بد له من القدرة التي يتابع بها هذا التسبب مرة مرة وحادثا حادثا بلا فرق هنا بين الجملة والتفصيل، فلا فرق هنا بين الحادث الذي يقع مرة واحدة والحادث الذي يقع ملايين المرات، فكلها تتوقف في بادئ الأمر على إرادة الخلق والإنشاء[2].

* * *

(1) الأعراف: 32.

(2) انظر الفلسفة القرآنية، ص17، بتصرف يسير.

المبحث الثالث

صيغ ورود السنن في القرآن الكريم

وردت لفظة سنة وسنن في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة في إحدى عشرة آية، وقد جاءت على الصور الآتية:

أولا: جاءت (مفردة)، وأقصد بالإفراد ما يقابل الجمع، وذلك في الآيات التالية:

1- ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38].

2- ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:13].

3- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا﴾ [الكهف: 55].

4- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا.اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا﴾ [فاطر: 43، 44].

5- ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا﴾[الإسراء: 77].

6- ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38].

7- ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 85].

ووردت مجموعة في الآيات الآتية:

1- ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137].

2- ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: 26].

ثانيا: وجاءت لفظة سنة مقطوعة أو غير مضافة في الآيات التالية:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ووردت مضافة في باقي الآيات الكريمة وإضافتها جاءت على صور:وردت فيها مضافة إلى الذين من قبلنا ﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ﴿سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ ﴿سُنَّتَ الأَوَّلِينَ﴾ ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ وهذا تصوير لورود كلمة سنة في القرآن الكريم. (1)

***

(1) انظر: مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الثانية عشرة، العدد 31، ذو القعدة، 1417هـ، إبريل 1997، ص 32، 52.

م	كلمة سنة في الآيات	رقم الآية	اسم السورة	مكان نزولها	ترتيب النزول	ترتيب المصحف
1	﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ﴾ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا﴾ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا﴾	43	فاطر	مكية	43	35
2	﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا﴾	77	الإسراء	مكية	50	17
3	﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾	13	الحجر	مكية	54	15
4	﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ ﴿سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾	85	غافر	مكية	60	40
5	﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾	55	الكهف	مكية	69	18
6	﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ	38	الأنفال	مدنية	2	8

م	كلمة سنة في الآيات	رقم الآية	اسم السورة	مكان نزولها	ترتيب النزول	ترتيب المصحف
	الأوَّلِينَ﴾					
7	﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾	137	آل عمران	مدنية	3	3
8	﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ.....﴾ ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا﴾ ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا﴾	62	الأحزاب	مدنية	4	33
9	﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾	26	النساء	مدنية	6	4
10	﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ	33	الفتح	مدنية	25	48

م	كلمة سنة في الآيات	رقم الآية	اسم السورة	مكان نزولها	ترتيب النزول	ترتيب المصحف
	﴿اللهِ تَبْدِيلا﴾					

***

وهذه خلاصة لأقوال المفسرين

في مدلول كلمة السنة في القرآن الكريم

نص الآية – وإسنادها	موجز أقوال المفسرين في معناها
1.﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران:137]	أ.ما جرى على المسلمين في أُحُد جرى مثله على الأمم السابقة. ب.ما سنه الله في الأمم من وقائع.
2.﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: 26]	أ.طرائقهم الحميدة، واتباعهم شرائع الله التي يحبها ويرضاها. ب.طرائقهم لتقتدوا بهم.
3.﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38]	أ.ما أحل بقريش يوم بدر، وبمن سبقها من الأمم. ب.بما مضى في الأمم السابقة من عذاب من قاتل الأنبياء وصمم على الكفر.
4.﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: 13]	مضمون الأقوال الواردة في معنى الآية (38) الأنفال.
5.﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا﴾ [الكهف: 55]	مضمون الأقوال الواردة في معنى الآية (38) الأنفال.
6.﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ﴾ [فاطر: 44]	مضمون الأقوال الواردة في معنى الآية (38) الأنفال.
7.﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا﴾ [الإسراء: 77]	أ.هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلهم، وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم أن يأتيهم العذاب. ب.أننا سننا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك: أنهم إذا أخرجوا نبيهم أو قتلوه لم يلبث العذاب

نص الآية – وإسنادها	موجز أقوال المفسرين في معناها
	أن يحل بهم.
8.﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]	أ.هذا حكم الله -تعالى.له وللأنبياء قبله، لم يكن يأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج. ب.هذه هي السنن القديمة في الأنبياء والأمم الماضية: أن ينالوا ما أحله الله لهم.
9-﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[غافر: 85]	أ.هذا حكم الله في جميع من تاب بعد معاينة العذاب: أنه لا يقبل منه. ب.أن الله سن هذه السنة في الأمم كلها: أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب.
10.﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا﴾[الفتح: 23]	أ.هذه سنة الله وعادته في خلقه: أنه ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل. ب.من نصر أوليائه على أعدائه.

* * *

خلاصة واستنتاج

بالنظر في هذه الآيات الكريمة في هذه الجداول السابقة نستطيع أن نصل إلى الآتي:

أولا: أن لفظ السنة ورد مفردا ومجموعا.

ثانيا: أن لفظ السنة والسنن ورد في السور المكية والسور المدنية على حد سواء.

ثالثا: أن لفظ السنن لم يكن تعقيبا على موقف واحد أو حدث معين في السورة القرآنية، ثم تأتي لفظة السنة بعد ذلك بل كانت تأتي لفظة السنة بعد ورود حشد كبير من السنن والنواميس والقوانين الماضية، وغالبا ما يعقب ذلك جمع السنة؛ كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾.

رابعا: أن كلمة سنة المضافة إلى المرسلين أو الذين خلوا من قبلكم أحيانا تأتي مضمومة التاء (سنة)، وأحيانا مفتوحة التاء (سنت).

خامسا: أن السنة عندما كانت ترد مضافة إلى الأمم التي قد خلت من قبل ﴿**وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ فإنه قد يراد من السنة ما شرعه الله لمن قبلنا من هذه الأمم الماضية أو الطرق الحميدة والعادات الرشيدة، والكيفية التي حققوا بها أقوال وتوجيهات أنبيائهم.

وعندما كانت تضاف إلى ﴿**مَن قَدْ أَرْسَلْنَا**﴾ فإنها تكون بمعنى الشرع والمنهاج الذي سنه الله لهؤلاء الأنبياء، أو أن هذه طريقة الأنبياء وعادتهم في تناول ما أحله الله لهم.

وعندما كانت تأتي مضافة إلى الله تعالى، فإنها تكون بمعنى أحكامه ووقائعه وأحداثه التي جرت على المخالفين لأمره، والناكثين لعهده، والمتنكرين طريقه المستقيم.

* * *

المبحث الرابع

موارد السنن الربانية

القرآن الكريم دستور البشرية ومنهاج حياتها، جعله الله تعالى آخر كلماته إلى أهل الأرض، تجمع فيه من الهدى والرشاد ما جعل الجيل السابق يقول: لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في القرآن.

إن القرآن الكريم ليس كتاب منطق ولا فلسفة بمعناها المعروف، إلا إنه سلك مع المخاطب لإقناعه وإرشاده والأخذ بيده إلى طريق الله المستقيم كل أسلوب ﴿**إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾[1].

﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[2].

﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[3]. ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ**﴾[4] حتى عرف عن منهج القرآن الكريم في الإقناع أنه للعرض لا للفرض، وللتعامل مع العقل لا لإكراه العقل على غير ما يريد، وليس أدل على ذلك من تكرار لفظ اللب والعقل والفكر، والنُّهى والذكر والعلم ومشتقاتها في القرآن الكريم عشرات المرات.

بل إن الأمر أبعد من ذلك وأدق؛ لقد جعل الإسلام (والقرآن مصدره الأول) العقل مناط التكليف ومرتكز الأمر والنهي، فإذا زال العقل سقط التكليف حتى كتب علماء الأصول بابا طويل الذيول والأكمام في هذا المقصد، سموه (عوارض الأهلية) أي الأشياء التي تعرض للمكلف فتزيل أهليته للتكليف.

ومن أول هذه العوارض زوال العقل.

ومن الأساليب الإقناعية التي استخدمها القرآن الكريم الإرشاد إلى مصارع الغابرين، وذكر الوقائع التي جرت عليهم، والأحداث التي حلت بهم من بؤس ونعم وخير وشر، فكثر في القرآن الكريم الأمر بالسير في الأرض والاعتبار بمصارع الغابرين وأحوال الماضين.

---

(1) سبأ: 46.

(2) البقرة: 256.

(3) الإنسان: 2.

(4) البلد: 10.

وتستطيع أن تقول: إن موارد السنن الربانية في القرآن الكريم تكمن في المظاهر الآتية:

أولا: القصص القرآني:

والقصص القرآني أحد الأساليب والوسائل التي استخدمها القرآن الكريم لنقل العظة والعبرة من الماضي السحيق إلى الحاضر المعاش، وله أهداف سامية وفوائد عالية رائعة، وهو لون من ألوان اختزال الخبرة التي حدثت لأقوام مضوا إلى أناس آخرين حتى خوطبوا هذا الخطاب لينتفعوا ويعوا ويعيشوا على فوائد هذا الذي حدث لمن قبلهم، وقد ورد في القرآن الكريم جانب ليس باليسير من القصص، وهو أحد الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم على رأي بعضهم.

وللقصة في القرآن أثر أي أثر في تثبيت المعنى وتجسيد الصورة وإظهار المراد، والإرشاد إلى مواطن العظة والعبرة، وهي تختلف في القرآن الكريم عنها في حياة الأدباء والروائيين؛ فالقصة في القرآن قصة حقيقية واقعية وإن لم تكن تعني من التاريخ بالجانب الذي يجعلها تاريخية صرفة.

ومن أبرز أهداف القصة في القرآن الكريم: «بيان أن دعوة الرسول متفقة في أصولها مع دعوة من سبقه من الرسل، وتثبيت فؤاد النبي وتقوية عزيمته في المضي إلى الدعوة رغم ما يلاقيه من أذى واضطهاد، فما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله، وإن يكذبوه فقد كذبت رسل من قبله، وإن يؤذوه فقد صبر الرسل من قبله على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله تعالى، ولا مبدل لكلمات الله.

كما أن من فوائدها تثبيت فؤاد المسلمين المؤمنين، وغرس الثقة في نصر الله تعالى في نفوسهم وتسليتهم عما أصابهم بما آلت إليه حال المؤمنين السابقين وحال أعدائهم الكافرين، وإظهار العظة والعبرة لكل من المؤمنين والكافرين على حد سواء»[1].

إن المساحة التي شغلتها القصة القرآنية من كتاب الله تعالى كانت مساحة واسعة ما نظن أن موضوعا آخر كان له ما كان للقصة من نصيب؛ فالقصص القرآني لا يقل الحيز الذي شغله من كتاب الله تعالى عن الربع إن لم يزد، (وستبقى القصة القرآنية الشعلة التي تضيء لهذا الإنسان لتصل حاضره بماضيه، وستبقى النعمة الربانية التي تشرف بها النفس وتعم القلب، وستبقى الوثيقة الوحيدة الصادقة الخالدة التي يطمئن الإنسان لمصداقيتها)[2].

---

(1) انظر في ذلك: اللآلئ الحسان في علوم القرآن، ص269 وما بعدها، للأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين بتصرف واختصار. وانظر كذلك في هذا المعنى (مباحث في علوم القرآن)، للشيخ مناع القطان، ص 302، مكتبة وهبة.

(2) انظر: القصص القرآني.. إيحاؤه ونفحاته، للدكتور فضل حسن عباس، ص 10، 11، بتصرف واختيار، ط دار الفرقان، ط الثانية 1413هـ، 1992م.

من هنا كان الجانب القصصي أغزر الجوانب في القرآن الكريم عناية برصد السنن الماضية، والنواميس السارية في اللاحقين كما سرت في السابقين.

ولقد توفر للقصص القرآني ما يجعله يمضي في نفس الخط الذي يمضي فيه قانون الله تعالى في السنن؛ فالناظر للقصة في القرآن يجد أنها تأتي عارية عن المثبتات إن صح التعبير التي تجعلها خاصة بزمان معين أو مكان محدد أو أفراد مخصوصين.

فإنها لا تتعرض حتى لذكر العلامات الظاهرة التي تجعل القصة قصرا على صاحبها؛ بل يتعدى مفعولها وفائدتها إلى كل من انطبقت عليهم صفات صاحب القصة.

أضف إلى ذلك أن كل قصة ترد في القرآن الكريم تعقب بآية أو آيات قليلات فيها خلاصة القصة، وتسرية معانيها وفوائدها إلى التالي من بعد.

وقصة يوسف – عليه السلام – على طولها وعرضها تختم بقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[1]. وكل موقف من مواقف القصة يعقبه تعقيب سريع لقوله تعالى عقب الحديث عن التقاط يوسف وأخذ السيارة له ﴿**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[2] فقوله تعالى: ﴿**وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**﴾ كأنها قانون مطرد وسنة عامة بعد الحديث عن جانب من جوانب قصة يوسف عليه السلام، وكقوله تعالى في السورة الكريمة نفسها بعد الحديث عن نجاة يوسف من شَرَك امرأة العزيز: ﴿**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**﴾[3] بما يشبه أن يكون قاعدة عامة ﴿**وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[4]. وذلك بعد الحوار الذي دار بين يوسف – عليه السلام – وإخوته وإظهار أمره عليهم، وانتصار الحق على الباطل.

---

(1) يوسف: 111.

(2) يوسف: 21.

(3) يوسف: 52.

(4) يوسف: 90.

وإذا انتقلنا إلى مَثَل آخر نجد قصة قارون تختم بقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1] وذلك بعد القصة التي حوت حلقات من الصراع بين الحق والباطل، وحوارات دائرة مائرة بين الذين يريدون الحياة الدنيا والذين أوتوا العلم إلى غير ذلك، وهكذا كل قصة من القصص القرآني تمضي على هذا الطريق وتنسج على نفس المنوال.

«ذلك أن أحداث التاريخ تتكرر وتتشابه إلى حد كبير؛ لأن وراءها سنن ثابتة تحركها وتكيفها، ولهذا قال الغربيون: التاريخ يعيد نفسه. وعبر العرب عن هذا المعنى بقولهم: ما أشبه الليلة بالبارحة. وأفصح عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾[2].

وقد أشار إلى تشابه المواقف والأقوال والأعمال نتيجة لتشابه الأفكار والتصورات التي تصدر عنها، وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾[3] وقال عن مشركي مكة: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾[4][5].

ولذلك فإن القرآن الكريم يكثر في قصصه الأمر بالعظة والاعتبار والسير والنظر، وإعطاء النظير حكم نظيره؛ ذلك لأنه يحدث للاحق ما حدث للسابق في عموم واطراد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[6] ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[7].

وقوله تعالى بعد الحديث عن عدد من صور الصراع بين الحق والباطل، وذكر مجموعة من أحداث الأمم الماضية وفعل الله تعالى بهم: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ**

---

(1) القصص: 83.
(2) آل عمران: 140.
(3) البقرة: 118.
(4) الذاريات: 52، 53.
(5) مدخل إلى دراسة السنن الإلهية في القرآن الكريم، ص51، مرجع سابق.
(6) الأعراف: 176.
(7) هود: 49.

تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾(1).

وفي التعقيب على موقف بني النضير في سورة الحشر يقول تعالى: **﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾**(2).

من هنا أخذ علماء الأصول من هذه الآية وأخواتها دليلا على مشروعية القياس وإعطاء النظير حكم نظيره، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن الكريم التي تعقب على قصة أو حادثة بالأمر بالنظر والاعتبار.

ثانيا: المثل القرآني:

والمثل والأمثال في القرآن أحد الأساليب الإقناعية التي استخدمها القرآن في عرض قضيته على الناس، وطرح فكرته على البشر.

والمثل أيضا كالقصة في تأثيرها في نفس السامع والقارئ؛ بل قد يكون وقعها أسرع ونمطها أمضى لما في التركيبة اللغوية للمثل من سهولة في الصياغة وقوة في الأداء واختزال في المعنى.. «وفي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها، وانقيادها لما ضرب لها من الحق أمرلايجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهورا ووضوحا؛ فالأمثال شواهد المعنى المراد ومزكية له»(3)

فالمثل لون من ألوان التعبير يختص بسمات تجعله في هذه المنزلة العالية من التأثير في النفس وإصابة غرضه ومبتغاه، (فهي تجمع إلى إيجاز اللفظ إصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية، فهو في نهاية البلاغة) (4).

ومن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم فخاطبهم بها ليعقلوا ويدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة، ومن عقل الأمثال سماه الله في كتابه (عالما)(5).

وذكر رائد البلاغة عبد القاهر الجرجاني أن التمثيل (إذا جاء في أعقاب المعنى كساها أبهة وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار بها من أقاصي

---

(1) هود: 100 – 103.

(2) الحشر: 2.

(3) إعلام الموقعين عن رب العالمين، 239/1.

(4) مجمع الأمثال، المقدمة.

(5) الأمثال من الكتاب والسنة، للحكيم الترمذي، ج1 ص 2، دار التراث، تحقيق د/ محمد علي البيجاوي.

البلاد والأفئدة صبابة، وكلف وقر الطباع على أن تعطيها محبة وشغافا، فإن كان مدحا كان مدحا أبهى وأفخم وأنبل في النفوس وأعظم، وأهز للعطف وأسرع للإلف، وأجلب للفرح وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بعز المواهب والمنائح، وأسير على الأنس وأذكر وأدلي بأن تعلقه القلوب، وأجدر وإن كان ذما كان مسه أوجع وميسه ألذع، ووقعه أشد، وحَدّه أحد. وإن كان حجاجا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر. وإن كان افتخارا كان شأوه أبعد، وشرفه أجد، ولسانه ألد.

وإن كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب وللسخائم أسل، ولضرب الغضب أقل، وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث.

وإن كان وعظا كان أشفى للصدر وأدعى للفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلي الغاية ويبصر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل[1].

وقد حرصت على ذكر كلام إمام البلاغة وأسرارها عبد القاهر الجرجاني لروعة تصويره لفوائد المثل التي لا تحصى وثماره التي لا تنتهي.

وقد حرص القرآن الكريم على تصوير معانيه وعرض قضاياه بأقرب صورة وأوضح سبيل، فجاءت أمثاله متكاثرة بأنواعها المختلفة وصورها المتعددة، وتضمنت هذه الأمثال بتركيبتها المعروفة عددا من السنن الثابتة والقوانين الماضية، حتى لا يكاد يخلو مثل من أمثال القرآن الكريم من الإشارة إلى سنة أو التعقيب على قانون، ولم لا وأصل وظيفة المثل في مضربه تصوير حالة حاضرة بحالة ماضية، وإعطاء اللاحقة حكم السابقة لتشابه أطرافها واتحاد أحوالها. وكثر في القرآن ضرب الأمثال وكثر ربطها بالعظة والاعتبار؛ فقد ورد المثل في القرآن الكريم ما يزيد على مائة مرة، وهذا بلفظ المثل صراحة عدا الصور الأخرى التي ورد عليها المثل في القرآن الكريم، ودعا القرآن الكريم إلى الاعتبار بالأمثال فقال تعالى: ﴿**وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[2] ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[3]، ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**﴾[4].

---

(1) أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجاني، بتعليق السيد رشيد رضا، صـ84، 88، ط محمد علي صبيح، ط السادسة 1379هـ، 1959م.

(2) سورة إبراهيم: 25.

(3) الحشر: 21.

(4) العنكبوت: 43.

ومن الناحية التطبيقية كثر ورود الأمثال في القرآن الكريم، وكثير كذلك ربطها بالعبرة والعظة، ومن ذلك قوله تعالى في رصد سنة شكر النعمة وكفرها: ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾[1].

وفي موطن الصراع بين الحق والباطل يقول تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ**﴾[2] وهي رصد لحلقة من حلقات الصراع بين الحق والباطل يجعلها القرآن الكريم في صورة ضرب المثل، وتختم الآيات الكريمة بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ * وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾[3]، وهذه سنة الله تعالى في إهلاك الظالمين إلى غير ذلك من الآيات التي تصور سنة الله تعالى في الأمم والأفراد في صورة المثل، أو يأتي المثل فيها ممهدا لسنة من السنن الربانية.

من هنا يمكننا أن نقول: إن ضرب المثل في القرآن الكريم مورد من موارد السنن الربانية وموطن من مواطنه.

ثالثا: الآيات التي ورد فيها الأمر بالسير في الأرض للنظر والاعتبار:

والأمر بالسير في الأرض والدعوة إليه ورد في القرآن الكريم مرات متعددة تزيد على أربع عشرة مرة؛ مرة في صورة تحضيض على السير، وإنكار لعدمه في ست مرات منها قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[4] فكان الدافع إلى السير النظر والتعقل، ومن معاني العقل الربط؛ أي ربط المعنى والعظة الماضية والانتفاع بها في الأوقات الحاضرة، ومن هنا نعى الله تعالى على الأبصار التي لا تعي، وأثبت أنها قد ترى لكنها لا تعقل، وقد تكون مفتوحة وترى لكنها لا تنتفع ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾.

---

(1) النحل: 112-114.

(2) يس: 13-29.

(3) يس: 31-32.

(4) الحج: 46.

وتأتي بعد هذه الآية الكريمة سنة من سنن الله تعالى في الخلق، وهي سنة عدم إخلاف الله وعده ووارده بعد الحديث عن تكذيب قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم موسى، والقرى التي أهلكت وهي ظالمة.

وكذلك قوله تعالى في سورة الروم: ﴿**أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[1].

فالآية الكريمة تغري الناس بالسير في الأرض والنظر في عاقبة الذين من قبلهم، وما كان لهم من قوة أشد من قوتهم وآثارهم التي عمروا بها الأرض، وقد جاءتهم الرسل بالبينات فما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم بتنكبهم الطريق المستقيم والصراط السوي، والآية الكريمة واردة بعد سنة من سنن الله تعالى في الخلق وهي سنة النصر؛ فقد تحدث صدر السورة عن غلب الروم في أدنى الأرض وأنهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، وذلك لأن الأمر كله لله من قبل ومن بعد، وهو الذي ينصر من يشاء فهو العزيز الذي لا يغالب الرحيم ينصر الحق على الباطل، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تحث على السير في الأرض والتفكر فيها، وورد الأمر بالسير صراحة في ست آيات كريمة، وقد عقب كذلك التعليق على الغابرين ومهالك الظالمين، والتعقيب على سنن الله الماضية التي تطرد في الأمم والأفراد دون مجاملة ولا محاباة.

فمثلا في سورة النحل يقول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾[2] والآية الكريمة واردة عقب الحديث عن كلام المشركين بأنه لو شاء الله ما عبدوا من دونه من شيء هم ولا آباءهم، ولا حرموا من دونه من شيء. وأتت الآية التالية لتأمر بالسير للتفكر في آثار الذاهبين، هؤلاء الذين لم يسمعوا إلا لقول الآباء والأجداد دون تفكر في المراد فهمه، ويتبع ذلك حديث عن سنة الله تعالى في الهداية والإضلال.

وإذا انتقلنا إلى سورة النمل نجد قوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**﴾[3] ورد الأمر بالسير في الآية الكريمة عقب عدد من القصص لأمم مضت كقوم صالح وسليمان وملكة سبأ وداود

---

(1) الروم: 9.

(2) النحل: 36، 37.

(3) النمل: 69.

وقوم لوط، وتوسطت آية الأمر بالسير عددا من السنن الإلهية كسنة الله في المكر والماكرين ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(1).

وسنة الهداية: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾(2).

وإذا وصلنا إلى سورة العنكبوت وجدنا قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(3)، وذلك وارد عقب سنة الله في الفتن والابتلاء.

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(4).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تدعو إلى السير وتأمر به، بما يمكنا معه أن نقول: إن الآيات التي أمرت بالسير في الأرض والتفكر في أحوال أهلها، والنظر في أمورها مورد من موارد السنن الربانية في القرآن الكريم.

***

(1) النمل 50، 51.

(2) النمل: 81.

(3) العنكبوت: 20.

(4) العنكبوت: 2-3.

المبحث الخامس

صور التعبير عن السنن الربانية

في القرآن الكريم

في مباحث سابقة تحدثنا عن صيغ ورود لفظ السنن في القرآن الكريم وموارد وجودها، ومواطن ظهورها في القرآن الكريم من القصص والأمثال، ومواطن الأمر بالسير في الأرض والنظر والتفكر، وفي هذا المبحث نتناول صور التعبير عن السنن الربانية في القرآن الكريم، وهذه الصور يمكن رصدها كالتالي:

الصورة الأولى:

أن ترد لفظ السنة صراحة في الآية الكريمة، وقد سبق أن عرفنا أن لفظ السنة ورد في القرآن الكريم في ثماني عشرة مرة في إحدى عشرة آية بصيغ متعددة سبق أن عرفناها.

الصورة الثانية:

أن ترد السنة في القرآن الكريم في صورة يرتبط آخرها بأولها ارتباط الشرط بالمشروط، أو العلة بالمعلول والسبب بالمسبب، وقد كثر ذلك في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿**إِن تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[1] وذلك في سنة النصر، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾[2] في قانون الفتح في الرزق ونحوه: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾[4] وذلك في سنة شكر النعمة وكفرها.

وكقوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا**﴾[5] وذلك في سنة الله تعالى في الإهلاك وقوله: ﴿**وَرَفَعَ**

---

(1) محمد: 7.

(2) المائدة: 65، 66.

(3) الأعراف: 96.

(4) الإسراء: 16.

(5) إبراهيم: 7.

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾[1] في سنة التفاوت بين الناس، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾**[2] في سنة الله تعالى في الترف والمترفين.

وقوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى.وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾**[3] في سنة الهداية والإضلال. وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**[4].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي ترد في هذه الصورة؛ صورة ارتباط الشرط بالمشروط، أو العلة بالمعلول، والسبب بالمسبب.

الصورة الثالثة:

ورود السنة مرتبة على فعل البشر وسلوكهم، ومرتبطة به ارتباط الحال بصاحبه والصفة بالموصوف والغاية بالمغيا، فمن وروده بصورة الحال قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾**[5]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾**[6]، ﴿**ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾**[7]، ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾**[8].

ومن ورود السنة مرتبطة بالسلوك البشري ارتباط الصفة بالموصوف قوله تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ**

---

(1) الكهف: 59.
(2) الأنعام: 165.
(3) طه: 123-124.
(4) البقرة: 251.
(5) هود: 117.
(6) القصص: 59.
(7) الأنعام: 131.
(8) الأنفال: 33.

مَعِيشَتَهَا﴾[1]، وقوله: ﴿كَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[2]، ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[3]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ﴾[4] إلى غير ذلك.

وأما ربط السنة بفعل البشر ارتباط الغاية بالمغيا فورد في مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[5]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا﴾[6] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[7].

الصورة الرابعة:

ورود لفظة (كذلك) في سياق قصة أو تعقيب عليها، أو في الحديث عن مشابهة تجمع الفعل الأول الذي وردت فيه السنة مع الفعل الثاني الذي تشابهت فيه الشروط وانتفت الموانع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[8] وكقوله تعالى في نهاية قصة أصحاب الجنة: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.[9]

* * *

(1) القصص: 58.
(2) الأنبياء: 11.
(3) الحج: 45.
(4) محمد: 13.
(5) الرعد: 11.
(6) الإسراء: 15.
(7) الأنفال: 53.
(8) يونس: 13.
(9) القلم: 33.

الفصل الثالث

العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية

المبحث الأول

خصائص السنن الكونية

السنن الكونية أثر من آثار إظهار أفعال الله تعالى في خلقه، وهي اللون الآخر والجانب الثاني من جوانب إبراز قدرة الله تعالى وعلمه وعزته وحكمته، وما اتصف به عز وجل من صفات قدسية كاملة.

وقد اتسمت هذه السنن التي نقصد بها الظواهر الكونية ومفردات العالم الذي نعيش فيه وننعم بخيره اتسمت بصفات متعددة، من أبرزها:

1- التوازن والنظام:

فالكون يشهد بكل أجزائه على أن النظام أساس الكون من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة، وهذا النظام والتوازن دلالة من دلالات الكون ومظاهره على الله تعالى؛ فلقد أثبت العلم الحديث أن نظام تركيب الذرة هو نظام تأليف المجرة، مما يشعر بأن صانع الأولى والثانية واحد وهو الله تعالى، ولا يتوقف هذا التوازن المطلق والنظام البديع عند جانب من جوانب الكون؛ بل يشمل الجميع.

«فلقد توصل علماء دراسة الذرة إلى ما حير الألباب وأذهل العقول بتكوين هذا الكون والنظام الذي يحويه... والقدرة التي يتحدث عنها إن نواة الذرة تحتوي على 99.9 من الوزن الذري، وقد وجد كذلك أن الشمس تحوي 99.9 من وزن المجموعة الشمسية، فعرفوا أن النواة في الذرة هي بمثابة الشمس في المجموعة الشمسية، ولوحظ كذلك أنه كما تدور الكواكب حول الشمس تدور الإلكترونات حول نواة الذرة؛ بل وجد ما هو أدق من ذلك، فالمسافة بين الإلكترونات بالنسبة لقطر الذرة معادلة لنفس المسافة بين الكواكب وقطر مجموعة الشمس.

وقوى التجاذب الناتجة من كهرباء الذرة بين البروتون الموجب والإلكترون السالب هذه القوة التي تجعل الإلكترونات تسبح حول النواة تتبع نفس المعادلات الحسابية بالضبط لقوى الجاذبية بين الشمس وكواكبها، حتى قوى التجاذب التي تجعل الإلكترونات تسبح في مدارات دائرية وبيضاوية حول نواة الذرة هي نفسها التي تجعل الكواكب تأخذ نفس المدارات في المجموعة الشمسية.

والقوة الهدامة التي تنتج من تحطيم الذرة والتي تمثلت في القنابل المدمرة التي عرفها البشر موجودة في الشمس بقدر يوازي ما تبلغه الشمس من أضعاف الذرة[1].

وهذا التوازن والنظام المطرد بين مظاهر الكون لا يتوقف عند حد ولا ينتهي عند نوع دون نوع من جوانب الكون، وهذا سر لفت القرآن الكريم أنظار الناس إلى السماء وما فيها والأرض وما عليها، وكثر ربط هذه المظاهرة الواضحة بالسلوك البشري والفعل الإنساني وفي كل يوم يكشف العلماء ما يجعلهم يزدادون إيمانا بالخالق الذي وضع الميزان لكل ما خلق، وفي الحياة يستطيع أي مشاهد أن يلمس الاتزان الذي يظهر جليا فيما حوله. إن زوج الذباب العادي ينتج خمسا وعشرين مليونا من الذباب في العام، فكيف تكون الحال لو عاش الذباب أكثر مما يعيش؟!! ولو عمر الإنسان أو النبات أو الحيوان ولم يجر عليه ما يجري على الأحياء من الموت، فكيف تكون الحياة؟![2]

وإذا انتقلنا من جوانب الكون المشاهدة إلى خليفة الله في الكون، إلى الإنسان نفسه، نجد أنه يجري عليه هذا الناموس المنضبط والقانون المحكم من قوانين الله في كونه في نظام واتزان. لقد أثبت العلم الحديث أن كل فرد من الأفراد يأخذ نصف صفاته من أبيه والنصف الآخر من أمه، وكل من هذين يأخذ نصف صفاته من أبويه بالتساوي؛ إذ قد وجد أن كل نواة خلية بشرية تحتوي على 48 من الكرموزومات فيما عدا خلايا البويضة والنطفة، فإنها تحتوي على نصف هذا العدد، ويتم العدد بتزاوجهما. وهذه الكرموزومات تحوي الجراثيم الموروثة التي تعد أصل وراثة الإنسان للصفات، ولما كان كل من الأب والأم قد أسهم بعدد مساوٍ من الجراثيم، فإن الأب والأم يتساويان لذلك في توريث الصفات للإنسان، ومن عجب أن القرآن الكريم قد قدر هذه النظرية قبل العلم بعشرات المئات من السنين؛ إذ يقول في سورة مريم ﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾[3] أي أن مريم لا يمكن أن تكون خاطئة أو آثمة؛ إذ لم تورث هذا الخطأ من الأب أو الأم؛ أي أن الصفات تورث من الأب والأم[4].

---

(1) انظر: الله والعلم الحديث، صـ156، 157، دار الشعب 1402هـ، 1982م للأستاذ عبد الرزاق نوفل بتصرف يسير، وانظر خلق الإنسان بين العلم والقرآن ج2 صـ309، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب 1996، للدكتور عبد الفتح طيره. وانظر أيضا القرآن والعلم الحديث، د/ منصور محمد حسب النبي، صـ227، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991م.

(2) السابق صـ158، بتصرف يسير.

(3) مريم: 28.

(4) القرآن والعلم الحديث، صـ113، بتصرف يسير.

من هنا نستطيع أن نقول: إن النظام والتوازن يمضي في كل مظاهر الكون وجوانبه من أصغر الأشياء إلى أكبرها، وهذا التوازن ينسحب بطريقة مطردة على العلاقة بين الكائنات بعضها ببعض، ونلحظ في هذا الانسجام الساري بين أجزاء الكون بما فيه ومن فيه روح العناية التي لا تغفل عن حفظ هذا الكون ورعايته.

وهذا التوازن بين عناصر الكون وشرائحه هو سنة الله تعالى التي دبر بها الكون وعليها أدار فلك نظامه الإلهي البديع، وهذا التوازن هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، وهو الحق الذي خلقت به الحياة، ومن أبدع ما عبر به البيان القرآني من سنة الله العامة في الكون ما لقن الله تعالى كليمه موسى – عليه السلام – في جواب التعنت الفرعوني إذ يقول حاكيا للسؤال والجواب في أوجز أسلوب إعجازي:﴿**قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[1].

والتعبير بـ ﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**﴾ بيان لسنته تعالى في توازن عناصر كل مخلوق توازنا جرى على تقدير منسق محكم. والتعبير بقوله (ثم هدى) بيان لسنة الله تعالى في توازن التمكين الذي أوتيه كل مخلوق في طرائق عيشه وضوابط حياته[2].

وآيات القرآن الكريم توحي بهذا التوازن المطرد والنظام الدقيق الذي ينتظم الأشياء جميعها صغيرها وكبيرها على حد سواء، وتقع بعض التوجيهات القرآنية مرتبطة بهذا التوازن موقع المعلل من التعليل، فيترتب على إدراك هذا التوازن إدراك عظمة فاعل هذا التوازن. واقرأ معي إن شئت قوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**﴾[3].

إن الثناء على الله تعالى بعد الأمر بتقديس اسمه الذي انبثقت منه سننه الكونية في تدبير ملكه وتربية خلقه بأنه قدر خلق كل خلق وسواه في أوضاع عناصره تقديرا متوازنا مع سائر عناصر الكون والحياة، بيان لسنة الله تعالى في نظامه الأبدي للكون. والثناء على الله سبحانه بأنه قدر خلق كل من خلق وسواه في صورة لا تتكرر وهي في موضعها من الحياة والكون، تؤدي مهمتها التي لا تؤديها صورة أخرى في مخلوقات الله، بيان لسنة التوازن الأبدي في خلق الله، وبيان لارتباط حياة كل مخلوق في طريقة عيشه بطبيعته وخلقته التي أبدع عليها[4].

---

(1) طه: 50.

(2) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، للمرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون،ص16, ط الدار السعودية، ط الثالثة، 1404هـ – 1984م.

(3) الأعلى: 1-5.

(4) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم، ص17، 18، مرجع سابق.

الإحكام والانضباط:

وإذا كانت الجوانب الكونية ومظاهر الحياة تمضي بنظام مطرد واتزان ثابت، فهي أيضا تمضي بإحكام وانضباط منقطع النظير، هذا الإحكام الذي يقابل الاطراد في سنن الله في البشر وإن ظهر ذلك في الجوانب الكونية بصورة مادية صارخة لم يكن في جانب السلوك البشري واضح النتيجة للعيان، على الأقل بهذه الحدة والصرامة. فالواقع الإنساني ليس منضبطا كواقع المادة؛ فالعنصر الروحي في تكوين الإنسان والإرادة الحرة جعلا هذا الواقع يتصف بكثير من الخفاء والغموض في العوامل والأسباب التي تنشأ عنها الظواهر السلوكية، الأمر الذي يجعله عصيا عن الفهم اليقيني والاطراد الصارم؛ خاصة أن الإنسان هو أداة التحليل ومحله في وقت واحد، بينما في إطار المادة والكون؛ فالإنسان هو أداة التحليل أما المحلل فآخر منفصل عنه، وهذا لا يعني أن حركة الإنسان ونهوض الحضارات وسقوطها يسير بشكل عشوائي عبثي، خالية من كل قانون ثابت؛ بل هي محكومة بقوانين عامة تحكم توجيهاتها ومساراتها العامة[1].

وهذا الإحكام والانضباط الذي يسير في جوانب الكون يتسم بالعموم والشمول فإذا نظرنا إلى نماذج من مظاهر هذا الكون أو بعض العمليات التي تحدث داخل هذه المنظومة الكونية مثل **الانصهار** الذي تتحول فيه المواد الصلبة إلى حالة سائلة، **والذوبان** الذي تتحول فيه المادة الصلبة إلى جزء من السائل، و**التجمد** الذي تتحول فيه المادة السائلة إلى حالة صلبة، و**الترسيب** الذي تتحول فيه المادة الذائبة إلى مادة صلبة، و**التبخير** الذي تتحول فيه السوائل إلى حالة غازية، وغير ذلك من العمليات الكثيرة التي تقوم وتتم في هذا الكون المنظم المحكم والمنضبط المتوازن.

إذا نظرنا إلى هذه العمليات أدركنا تمام الإدراك أن الكون قائم على الإحكام المتقن والانضباط التام، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿**ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[2].

فلا يمضي ذلك بطريقة عشوائية عبثية «وإنما يمضي حسب قوانين وأحكام وقواعد تبينها كتب خواص المادة والفيزياء وغيرها، مما يؤكد أن الذي قدر هذه التحولات المفيدة في أوصاف المادة إنما قدر بنظام محكم دقيق يجعل هذه التحولات المفيدة نافعة ضمن خطة عامة حكيمة يسير عليها هذا الكون، كما أن هذه القوانين الحكيمة

---

(1) انظر مراجعات الفكر والدعوة والحركة، للأستاذ عمر عبيد حسنة، ص9. وانظر: مدخل إلى دراسة السنن الإلهية، ص 42، مرجع سابق.

(2) يس: 38.

وهذه التحولات المقدرة تشهد أن ربها حكيم عليم خبير بصير[1].

إن هذا الانضباط التام والإحكام المطلق الذي لا يجد الإنسان في جانب من جوانبه شيئا من فطور، هو ما جعل القرآن الكريم يلفت أنظار الناس إلى جوانب الكون ومظاهره، وجعل الله تعالى هذه الدلالات شواهد صارخة على استحقاقه للتنزه والتقديس ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾[2].

لقد أثبت العلم الحديث أن الأرض التي نعيش عليها تبعد عن الشمس التي تبلغ درجة الحرارة على سطحها 12 ألف درجة فهرنهيت بمقدار يبلغ 92 مليون ونصف مليون ميلا، وتبعد عن القمر بمقدار 24 ألف ميل، وهذه الأبعاد هي التي تكفي لتهيئة البيئة الصالحة للحياة بالصورة التي نعرفها على الأرض؛ إذ لو قربت الأرض عن ذلك لاحترقت الأحياء التي عليها في التو واللحظة، وانعدم منها كل كائن حي على الأرض، ولو قرب القمر أو بعد عن ذلك لغمر المد القارات بالماء ولأهلك الجَزْر الحياة والأحياء.

وتدور الأرض على محورها بسرعة ألف ميل في الساعة؛ أي ما يعادل مرة كل أربع وعشرين ساعة، ولو قل معدل دورانها عن ذلك لطال النهار بما قد يؤثر في النبات والأحياء صيفا وطال الليل، بما قد تتجمد بسببه السوائل شتاء، وبذلك تقل مسببات الحياة والتي لو زادت لانعدمت شيئا فشيئا[3].

إلى غير ذلك من الظواهر التي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن هذا الكون أساسه النظام المطلق والإتقان المتناهي والانضباط والإحكام، وفي ذلك كله: ﴿**بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[4]

ولقد رأيت في إحدى رحلاتي إلى كندا كيف تؤثر خطوط الطول والعرض في الوقت؛ فلقد صليت المغرب في مدينة فرانكفورت بألمانيا، ولما رحلت إلى «كالجري» إحدى مدن كندا وجدت أن الشمس ما تزال موجودة، وحدثني بعض الثقات هناك أن في أعالي كندا مناطق يطول فيها الليل في ساعات الشتاء ويقصر النهار بطريقة لا يمكن معها التعايش مع الحياة، وفي الصيف يطول النهار ويقصر الليل بنفس الطريقة، فسبحان الخالق الذي غمرت نعمه عباده رغم قلة شكرهم!!.

---

(1) توحيد الخالق، للأستاذ عبد المجيد الزنداني، ج2 ص29، ط دار المجتمع للنشر والتوزيع، ط الثانية 1407هـ، 1987م.

(2) الملك: 1-4.

(3) انظر: الله والعلم الحديث، للأستاذ عبد الرزاق نوفل، ص21، ط دار الشعب، بدون تاريخ، بتصرف يسير.

(4) آل عمران: 138..

وانظر – رعاك الله – إلى كلام بعض علماء الغرب عن المبدع الأعظم الذي نظم هذا الكون وأتقن صنعه، وهو العالم الهندسي كلوم هاناواي[1]: ليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم، وبرغم استقلال بعضها عن بعض فإنها متشابكة متداخلة، وكل منها أكثر تعقيدا في كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخ الإلكتروني الذي صنعته، فإن كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم فلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجي الكيماوي البيولوجي الذي هو جسمي والذي ليس بدوره إلا ذرة من ذرات هذا الكون اللانهائي في اتساعه وإبداعه إلى مبدع يبدعه.

إن التصميم أو النظام أو الترتيب أو سمها ما شئت لا يمكن أن تنشأ إلا بطريقتين، طريق المصادفة أو طريق الإبداع والتصميم، وكلما كان النظام أكثر تعقيدا بعد احتمال نشأته عن طريق المصادفة، ونحن في خضم هذا اللانهائي لا نستطيع إلا أن نسلم بوجود الله.[2]

والعالم الجيولوجي الغربي (داوسن) يقول: إن الإيمان بسنن الله الكونية ضروري بالنسبة للمعنى الفلسفي لصلاة الإنسان ودعائه، فلو كان الكون قائما على الفوضى أو لو كان أمرا حتميا لا سبيل إلى تعديله لما كان هناك مكان لصلاة الإنسان ودعائه، أما إذا اعتقد الإنسان أن هذا الكون يقع تحت سيطرة إله مشرّع حكيم رحيم لا مجرد مدبر لجهاز آلي، فإننا نتقدم إليه بالصلاة والدعاء لا ليغير خطته العظمى وسنته، ولكن لكي يدبر بحكمته الواسعة ومحبته لنا الأقدار بحيث تفي بحاجاتنا[3].

وأرى في هذا الكلام غناء أي غناء عن مزيد من الكلام في إثبات التطابق بين سنن الله في الكون وسننه في سلوك البشر؛ فكل يجري حسب ضبط وإتقان وإحكام، «فإذا كان للكون سننه المطردة وقوانينه الثابتة التي تحكم مسيرته وتضبط عوالمه من الذرة إلى المجرة؛ كقوانين الجاذبية والطفو والحرارة والبرودة وغيرها، فإن للمجتمعات الإنسانية قوانين عامة كذلك تضبط مسيرتها وتبين عوامل تقدمها وتقهقرها وبقائها وفنائها، هذه القوانين تتلخص في أن الله جعل بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل والعفة عن الشهوات، والالتزام بتعاليم الأنبياء، وجعل هلاكلها ودمارها في التخلي عنها سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ولا تتبدل بتبدل الأجيال[4]».

---

(1) هو مستشار هندسي يصمم العقل الإلكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية.

(2) الله يتجلى في عصر العلم، تحرير جون كلومرمونما، ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان، صـ113، ط الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ط الرابعة، 1986م.

(3) الله يتجلى في عصر العلم، صـ109-110.

(4) مفهوم سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم، بحث للدكتور صديق عبد العظيم أبي الحسن، ضمن مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الثانية عشر، العدد الحادي والثلاثون، ذي القعدة 1417هـ – 1997م.

وخلاصة القول:

أن السنن الكونية أو ظواهر الحياة المادية بصرامتها وحدتها تقوم على الاتزان الكامل والإتقان المحكم والنظام والانضباط، وفي هذه الصفات ما يتلاقى مع قانون الله تعالى في الخلق من عموم وشمول واطراد أو تبدل أو تحول.

***

المبحث الثاني

السنن الكونية والسنن الإلهية

لأهل النظر في القرآن الكريم والتفكر في الكون عبارات دالة يحسن بنا أن نقف أمامها وننعم بفيضها، من ذلك قولهم: لله كتابان، مسطور وهو القرآن ومنظور وهو الكون؛ فالكون قرآن منظور، والقرآن كون مسطور، والقرآن يمثل كلام الخبير، والكون يمثل فعل الخبير، ولا يخالف كلام الخبير فعله[1].

والمتأمل للكون والقرآن معا يجد هذا التطابق الذي يلفت النظر ويسترعي الذهن ذلك الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[2].

(فالآفاق) الواسعة الفسيحة بما تحمل من قوانين ثابتة مطردة وسنن ماضية حاكمة جانب من جوانب الإعجاز الإلهي، الجوانب التي من خلالها يصل الناس إلى الله تعالى. (والأنفس) بما لها من قوانين ضابطة تمضي عليها لا تشذ عن ضبطها ولا تنفلت عن سياجها جناح آخر لهذا اللون من ألوان الإعجاز.

وأقصد بالسنن الكونية الظواهر الكونية التي أسس عليها الكون من سماوات وأراضين وذرات ومجرات وبحار، وبتعبير القرآن المعجز (آفاق).

وأقصد بالسنن الإلهية (موضوع البحث) النظام الإلهي في الأفراد والأمم والشعوب والمجتمعات، والناظر بين هذين المجالين يجد ارتباطا عجيبا وتناسقا بديعا **من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة**.

فقوانين الآفاق التي تحكم الكون بظواهره تخضع لثبات واطراد وشمول وحاكمية مهيمنة؛ فالماء يصل إلى الغليان عند درجة مائة، ويتجمد عند درجة الصفر، وهذا القانون ثابت لا يتغير ولا يتبدل؛ بل يعطي نتيجته لكل من يتعامل معه دون نظر إلى طبيعة من يتعامل معه؛ ذلك لأنه قانون ماض على الجميع لا يحابي ولا يجامل ولا يستثني، وكما يمضي هذا النظام الإلهي في جوانب الكون الإعجازية بثبات واطراد وعموم وعدم تبدل أو تحول يمضي أيضا في جوانب الحكم على أفعال البشر في الحياة، فإن مصدر هذه القوانين الكونية وتلك القوانين الإلهية في الأمم والأفراد واحد وهو الله سبحانه وتعالى، وهناك ارتباط وتآخٍ بين المجالين، المجال الكوني بما فيه من جوانب الإعجاز والنظام والجانب البشري بما فيه من سلوك البشر وأفعالهم.

---

(1) انظر: نظم الآلي من حكم الغزالي، جمع وإعداد د. رمضان خميس الغريب.

(2) فصلت: 53.

(وسنن الله بصفة عامة سواء أكانت كونية أم بشرية مرتبطة أشد الارتباط في وحدة نظامية يأخذ بعضها بِحُجَز بعض، وتتماسك في اتساق حتى تكوِّن نظاما كونيا متناسقا أبدع ما يكون التناسق، يسير العالم في ظله بسماواته وأراضيه ومن فيهما وما فيهما، وما بين ذلك من خلق لا يعلم عدده ولا حقائقه إلا مقدره وخالقه، محكوما بتلك السنن الإلهية التي لا تحيد عن خطها المرسوم في لوح الأزل، وإنما عقول البشر هي التي قد تنحرف عن التناسق الكوني إفراطا أو تفريطا، قصورا عن إدراك التناسق أو جموحا في ارتياد تلك الوشائج، فتتوهم وتتخيل ثم لا تلبث الحقائق الكونية في سنن الله أن تردها إلى دائرة الحقيقة الكونية الكبرى ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾[1][2].

ذلك أن الكل أثر فعل الله تعالى وقدرته سواء في الجانب الكوني أو الجانب البشري. ولقد حرص القرآن الكريم على ترسيخ هذه الفكرة في أذهان أتباعه كما سنعرف ذلك بجلاء عما قريب؛ فحرص على أن يدركوا الترابط الموجود بين قوانين الله تعالى وقوانينه في سلوك البشر، فسنته تعالى في المجتمع جانب من جوانب الفكرة القرآنية التي بثها الله تعالى في آيات هذا الكتاب المبين نظاما اجتماعيا مترابطا إلى جانب سنن الله العامة في الكون التي تصور فلسفة القرآن في فهم الحياة، كما تصور حكمته في نعوت الكمال لله تعالى خالق الحياة وفلسفة القرآن تجعل من الكون كله حقيقة واحدة طوى فيها خالقها دلائل وجوده وبراهين وحدانيته وآيات قدرته وعلمه وحكمته، ووكل إلى العقل البشري –تكليفا وتشريفا.الكشف عن هذه الدلائل والبراهين بما أودع فيه من قوة إدراكية غائصة وبما أمده به من عون فتهديه إليها وهذا المعنى هو خلاصة وعد الله تعالى لهذا العقل بالكشف عن آيات الله في الكون، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[3][4].

وهذا التوازن الموجود في الكون كله بما فيه الإنسان من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة هو قانون يمضي على مفردات الكون بمظاهره وآحاد الإنسان وسلوكه. ولقد حفل القرآن بالحديث عن هذا التوازن الذي يطرد على الكون والإنسان جميعا ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾[5]، ﴿**أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِم مَّا**

---

(1) فاطر: 41.

(2) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، ص 11.

(3) فصلت: 52.

(4) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، ص15.

(5) الحجر: 85.

﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2]. وهكذا تمضي آيات القرآن الكريم في الربط بين الكون ومعطياته والنوع الإنساني ومفرداته دون فصل؛ فالجميع يصدر عن مشكاة واحدة، ويتفرع عن مصدر واحد.

«والقرآن الكريم في حديثه عن آيات الله الكونية يقرن الأرض بالسماء، ثم يتحدث عن شيء من عوالم السماء إبرازا لما فيه من سنن الله وآياته ودلائل قدرته، كما رأينا في حديثه عن الشمس والقمر في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3] فمستقر الشمس في جريها هو مدى سيرها الذي تنتهي إليه ولا تتجاوز في حركتها المقدرة لسبحها في فلكها الخاص بما يحقق التوازن بينها وبين عالمها وسائر عوالم السماوات والأرض وما بينهما في تقدير العزيز العليم، وكذلك منازل القمر في سيره قربا وبعدا وصغرا في رأي العين وكبرا، حتى إذا بلغ آخر منزل منها يرى دقيقا باهتا مقوسا كما هو قضية هذا التشبيه اللطيف الذي جاءت به الآية الكريمة توازن ثابت محكوم بسلطان السنن الإلهية، فلا تدرك الشمس في جريها لمستقرها القمر في سيره إلى منازله؛ لأن كلا منهما محكوم بسلطان وضعه الخاص في نظام الكون، فإذا استوى الدليل بهذا العلم العلوي على باهر قدرة الله تعالى تنقل إلى الحديث عن الأرض وألوان الحياة بها، وسيد الأرض الذي سخر الله له ما فيها من منافع هو الإنسان؛ لأنه صاحب السلطان على كل ما سخر الله له من شيء، ومن هنا كان لا بد من اختصاص هذا الإنسان بنوع من السنن الإلهية يقيم عليها بناء حساباته بدءا وانتهاء[4].

وهذا الترابط الواضح لدى الناظر بين قانون الكون وقانون السلوك الإنساني من الظهور بمكان وعند التطبيق بين صفات وخصائص القانون الكوني أو النظام الإلهي في الكون والنظام الإلهي في سلوك البشر، سيتضح مدى الانطباق الكامل والتطابق الكلي بين هذا وذاك، والفرق بين نتائج القوانين الكونية والقوانين الإلهية في البشر أن الناظر لأول وهلة في القوانين الكونية يجد نتائجها واضحة صارمة لا تقبل التغيير ولا التبديل. ويظن صاحب النظر المتعجل أن القوانين الإلهية في البشر ليست كذلك، لكن عند التأمل نجد مدى التطابق الكلي بين قوانين الله في

---

(1) الروم: 8.

(2) الدخان: 38-39.

(3) يس: 38-40.

(4) انظر: سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، ص19، 20.

الكون وقوانينه في بني الإنسان، ولعل هذا ما يلفت النظر إلى الحديث القرآني عن مظاهر الكون وخلقه وقوانينه في ثنايا الحديث عن النظام الإلهي في البشر، وكثر الاستدلال بإتقان نظام خلق السماوات والأرض وما بينهما على أن لله حكمة في خلق المخلوقات وخلق نظامها وسننها وفطرها، بحيث تكون أحوالها وآثارها وعلاقة بعضها ببعض متناسبة مجارية لما تقتضيه الحكمة، ولذلك قال تعالى بعد بيان هلاك الأمم التي كذبت رسلهم: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ**﴾[1] ليبين لنا أن ذلك الجزاء الذي حل بها مناسب لتمردها وفسادها، وذلك بعد ذكر قصة قوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الحِجْر، مما يدعو إلى التفكر في هذا الارتباط المحكم بين النواميس الكونية والنواميس الاجتماعية.

فإذا نظرنا مثلا في سورة الأنبياء نجد أنها تعني بهذا الربط بين مظاهر الكون الواضحة للعيان والتي تجري بحسبان وبـ (تقدير العزيز العليم)، وبين النظام الإلهي في سلوك البشر وأفعالهم، اقرأ إن شئت مثلا قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[2].

فهذه الشريحة الرائعة من آيات القرآن الكريم تجمع بين عدد من مظاهر الكون وقوانينه:

1- كون السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله تعالى.

2- وجود الرواسي التي تمنع الأرض من الميدان بالناس.

3- جعل السماء سقفا محفوظا.

4- خلق الليل والنهار.

5- خلق الشمس والقمر.

6- جعل الكل يَسْبح في فلك خاص لا يتعداه ولا يتحداه.

---

(1) الحجر 85، 86.

(2) الأنبياء: 30-35.

ثم تنتقل الآيات الكريمة دون أدنى مفاجأة إلى رصد جانب من جوانب السنن الإلهية في البشر، وهي:

1- سنة عدم التخليد للبشر.

2- سنة التوفي لكل نفس.

3- سنة الابتلاء بالخير والشر فتنة.

فهذا الترابط بين قوانين الكون وقوانين البشر ليست عبثا ولا سدًى، ولكن (ذلك تقدير العزيز العليم) كما قال الله سبحانه وتعالى.

وإذا انتقلنا إلى سورة الحج بعدها - وهي سورة مدنية - وجدنا نفس الخيط الدقيق الذي يمضي في مفاصلها ويسري بين أعصابها كما يسري الدم الدفاق في عروق الإنسان، نجد قوله تعالى في تصوير سنة النصر والتمكين: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾[1].

وتمضي الآيات الكريمة حتى يقول الله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[2].

ففي الآيات الأولى من 39-41 يرصد الله -تبارك وتعالى.عددا من السنن وهي:

1- سنة النصر لمن ظلم.

2- سنة التدافع.

3- سنة التمكين.

وفي الآية (46) من السورة الكريمة التي تُعد تعقيبا على هذا الرصد الكريم يلفت الله أنظار الناس إلى السير في الأرض (الآفاق)، والاعتبار بما فيها وما حدث عليها من أحداث للأمم الماضية، والتعرف على قوانينها الضابطة ونواميسها الحاكمة.

---

(1) الحج: 39-41.

(2) الحج: 46.

وفي السورة نفسها رصد آخر وربط ثان بين نصرة المغلوب المظلوم المعتدى عليه وبين إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، وذلك قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ**﴾[1] والناظر في هذه الآيات الكريمة يجد هذا التوازي بين قوانين الكون وقوانين البشر، فصدر الآيات الكريمة يتحدث عن نصر الله تعالى لمن بغى عليه، وهذه سنة من سنن الله تعالى في خلقه يأتي بعدها عدد من الدعائم لهذا النصر أو إرشادات لطمأنة هذا المغلوب المظلوم وذلك في الصور الآتية.

1- الأولى: ذكر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل.

2- الثانية: ذكر أن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل.

3- ذكر صورة الأرض الجرزاء التي ينزل الله عليها الماء فتصبح مخضرة.

4- ذكر أن الله له ملك السماوات والأرض.

5- ذكر أن الله سخر للإنسان ما في الأرض، والفلك تجري في البحر بأمره.

6- ذكر إمساك الله السماوات أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

فهذه الدلالات الساطعة والإرشادات القاطعة على قدرة الله تعالى على التغيير من حال إلى حال مدخل وبرهان على قدرته تعالى على نصر المغلوب وتمكين المقهور وتغيره من حال إلى حال.

وقد أبدع صاحب (التحرير والتنوير) بحق عندما ألمح إلى هذا الترابط البديع فقال: «والمناسبة الرابطة بين نصر الله من بُغِي عليه فصبر، وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، هي الإيماء إلى تقلب أحوال الزمان؛ فقد يصير المغلوب غالبا، ويصير ذلك الغالب مغلوبا، فإن النصر يقتضي تغليب أحد الضدين على ضده، وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة، فضرب له مثلا بتغليب مدة النهار على مدة الليل في بعض السنة، وتغليب مدة الليل على مدة النهار في بعضها، والحاصل أنه لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة

(1) الحج: 60-66.

المسلمين، فإن القادر على تغليب النهار على الليل حينا بعد أن كان أمرها على العكس حينا آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي[1]. وهذا الربط رائع في إيضاح المشابهة بين تغيير حال المغلوب إلى الغالب بحال الليل يولج في النهار والنهار يولج في الليل فيما ذكرته الآيات الكريمة من إيلاج النهار في الليل وإيلاج الليل في النهار سنة كونية ونصر الله للمغلوب أيضا سنة إلهية؛ فالظاهرة الأولى ظاهرة طبيعية تمر بالبشر صباحا ومساء وصيفا وشتاء (الليل يدخل في النهار وهو يطول في مدخل الشتاء، والنهار يدخل في الليل وهو يقصر عند مطلع الصيف. ويرى البشر هذه الظاهرة وتلك، من إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، فينسيهم طول رؤيتها وطول ألفتها ما وراءها من دقة النواميس واطرادها، فلا تختل مرة ولا تتوقف مرة وهي تشهد بالقدرة الحكيمة التي تصرف هذا الكون وفق تلك النواميس.

والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكررة حتى لا يمر الناس عليها غافلين، ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة وهي تطوي النهار من جانب وتسدل الليل من جانب، وهي تطوي الليل من جانب وتنشر النهار من جانب في دقة عجيبة لا تختل، وفي اطراد عجيب لا يتخلف، وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يدفع عن نفسه العدوان، إنه سنة مطردة كسنة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، فكذلك يزوي الله سلطان المتجبرين وينشر سلطان العادلين، فهي سنة كونية، تلك السنة يمر عليها الناس غافلين كما يمرون على دلائل القدرة في صفحة الكون وهم لا يشعرون[2].

وهكذا تمضي الآيات الكريمة في رصد دلائل قدرة الله تعالى، ومن خلالها يتم التطابق بين السنن الكونية الثابتة التي لا تتخلف والسنة الإلهية في الأمم التي لا تتخلف أيضا، وهذا وذاك مطروح أمام الناظرين، ولكن اعتياد الناس أمرا معينا ولو كان ملموسا محسوسا قد يذهلون عنه رغم اطراده وعدم تخلفه، ومن شدة الظهور الخفاء.

وإذا انتقلنا إلى (سورة المؤمنون) – وهي سورة مكية – وجدنا نفس التزاوج الرائع والمزيج الباهر بين دلائل القدرة الرائعة في الأنفس والآفاق واطرادها في قوانين الله تعالى في سلوك البشر؛ فقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**﴾[3] فصدر الآيات الكريمة يتناول سننا ثابتة في الكون، **والإنسان**

(1) التحرير والتنوير، 315/17.
(2) الظلال ج4. ص2441، ط الشروق، ط الرابعة، 1397هـ، 1977م.
(3) المؤمنون: 12-16.

مفردة من مفرداته:

1- خلق الإنسان من سلالة من طين.

2- جعله نطفة من قرار مكين.

3- جعل النطفة علقة.

4- خلق العلقة مضغة.

5- كساء العظام لحما.

6- إنشاءه خلقا آخر.

وتنتقل الآيات الكريمة بعد رصدها السنن الثابتة إلى الحديث عن:

1- سنة الله في الإماتة.

2- سنة الله في البعث.

وهذه الآيات وسابقتها تمهيد بديع للحديث عن سنة الصراع بين الحق والباطل الممثلة في قصة نوح – عليه السلام – وموقف قومه، ويختم الأسلوب القرآني هذا كله بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ**﴾[1] بما يؤكد للناظر والدارس أن كل ما سبق هو آيات بينات ودلالات ظاهرات تمضي في الجانب الكوني كما تمضي في الجانب البشري في تناغم واتساق.

وفي سورة النور – وهي مدنية – يمضي نفس النهج القرآني في المزاوجة بين دلائل الله تعالى في الآفاق ودلائله في الأنفس، ويجمع هذا كله الآيات من 38-46 حيث تتحدث الآيات الكريمة عن جزاء الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وجزاء الذين كفروا، ووصف أعمالهم بالسراب الكائن بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه، وتمتد لتتناول الحديث عمن يسبح الله في السماوات والأرض، وإزجاء الله السحاب الذي يؤلف بينه ثم يجعله ركاما، وإنزال جبال البرد من السماء، وتقلبه تعالى الليل والنهار.

وإذا انتقلنا إلى سورة النمل وجدنا تلك الآيات التي تتحدث عن قانون الله تعالى في المكر والماكرين في رصدها لقصة نبي الله صالح – عليه السلام – مع قومه ثمود، ويعقب القرآن الكريم بقوله: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا**

---

(1) المؤمنون: 30.

وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[1] وبعد هذا وبعد الحديث عن قصة لوط – عليه السلام – وقومه تأتي مجموعة من الآيات الكونية التي هي من الظهور والبيان بدرجة لا يستطيع أن يتناساها ناظر، وهي في الآيات من 59 إلى 64، وقد شملت الآيات الكريمة:

1- خلق الله للسماوات والأرض.

2- إنزاله من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة.

3- جعل الأرض قرارا، وجعل خلالها أنهارا، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزا.

4- إجابته المضطر إذا دعاه، وكشفه السوء، وجعل الناس خلفاء الأرض.

5- هدايته للناس في ظلمات البر والبحر.

6- إرساله الرياح بشرا بين يدي رحمته.

7- بدؤه الخلق وإعادته إياه.

8- التكفل برزق الناس من السماء والأرض.

وفي حديث السورة نفسها عن قانون الهداية والضلال: **﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾**[2] بعدها بآيات يسيره حديث عن سنة كونية في قوله تعالى: **﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**[3] وقوله: **﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾**[4].

وفي سورة القصص حديث للقرآن الكريم عن سنة الله تعالى في الإهلاك في قوله تعالى: **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ**

---

(1) النمل: 50-53.

(2) النمل: 79-80.

(3) النمل: 86.

(4) النمل: 88.

﴿الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[1].

ثم تمضي الآيات الكريمة ترصد شبهات هؤلاء الغاوين وتصف حالهم في الآخرة، وعمى الأنباء عليهم فهم لا يتساءلون، حتى تأتي الآيات التي تكمل هذا الجانب في ناحية الكون وطلاقة قدرته تعالى فيه بقوله: ﴿وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

ومن هنا كثر تنبيه القرآن الكريم إلى النظر في الأرض والسماء، والامتزاج بين النظام الكوني في الخلق والإبداع والنظام البشري في السلوك والأفعال، حتى لا تكاد تجد آية تتحدث عن نظام خلق السماوات والأرض وإبداعها إلا ومعها حديث عما يخص النظام البشري كهذه النماذج السريعة:

1- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[3].

2- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾[4]

3- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[5]

4- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾[6]

5- ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[7]

6- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ.لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا

---

(1) القصص: 58-59.
(2) القصص: 70-73.
(3) الحجر: 85.
(4) الأنبياء: 216.
(5) ص: 38.
(6) الدخان: 44.
(7) الأحقاف: 46.

﴿فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1]

وكذلك آخر سورة العنكبوت وصدر سورة الروم، وصدر سورة سبأ، وصدر سورة فاطر، وغير ذلك من الأمثلة التي يعي حصرها من أراد حصرها لغناها وكثرتها.

* * *

(1) الأنبياء: 16-18.

الفصل الرابع

منهجية التعامل مع السنن الربانية

المبحث الأول

الإنسان مهيأ لإدراك السنن الربانية

الإنسان خليفة الله في أرضه، استعمره فيها واستخلفه من قبله عليها، ومهد له سبل الانتفاع بها، ووسائل التعايش معها، وجعل كل ما حوله يخدمه ويؤازره، وزوده بملكات يدرك من خلالها ما حوله وهداه إلى سبل الانتفاع بها، وجعل ذلك نعمة من نعمه تعالى عليه، ومنة من مننه لديه؛ بل علة لتسبيحه تعالى فقال: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**﴾ [الأعلى: 1.5].

وهيأ له من وسائل العلم والمعرفة ما يجعله أهلا لتلقي أوامر الله تعالى وتنفيذ وصاياه، لذلك كثر في القرآن الكريم الأمر بالسير في الأرض والتفكر فيها والنظر في جنباتها والاتعاظ بأحوال أهلها، وتعدد في القرآن الكريم ألفاظ الذكر والفكر والنهي.

وهيأ الله تعالى الإنسان لإدراك مواطن صلاحه؛ بل عد ذلك نعمة من نعمه، ودليلا من الأدلة على الوصول إليه عز وجل: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾.(1)

[إن الإنسان خليفة الله في الأرض، ومظهر لصفاته.. قال تعالى:﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ ثم جعله أفضل من جميع مظاهر القدرة ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾(2) وحتى يتمكن الإنسان من حمل هذه المسئولية منحه الله تعالى استعدادًا ماديا وروحيا وتنظيميًا وخلقيا ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ [التين: 4-7].

﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ [البقرة: 31].

---

(1) فصلت: 53.

(2) البقرة: 30.

[وقد ذكر المفسرون معاني عديدة للأسماء أنسبها قولهم: إنها علم حقائق الأشياء، والمراد بالعلم هنا العلم الإجمالي، وهو يشير إلى الصلاحية] [1].

وهذه الآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ تجعل المسلم يشهد طرفًا من هذا السر الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة؛ سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها وهى ألفاظ منطوقة رموزًا لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة، وهي قدرات ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض، تدرك قيمتها حين تتصور الصعوبة الكبرى لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات والمشقة في التفاهم والتعامل حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه... إنها مشقة هائلة لا تتصور معها الحياة، وإن الحياة ما كانت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات[2].

فلا شك أن تعلم آدم للأسماء نوع من إعداده وتهيئته للقيام بمهمته في الأرض، ولولا هذا التعليم لأنواع الأشياء وأسمائها وخصائصها لما تيسر له العيش في هذه الأرض ولا الانتفاع بخيراتها. والناظر في القرآن الكريم وآياته يرى أنها تأمر المسلم بل الإنسان بصفة عامة بالسير في الأرض والتفكر فيها، وفي دلائل قدرة الله تعالى من خلالها والنظر إلى السماء والوصول من خلال ذلك إلى مكونها وباني سمكها ورافعها بلا عمد تراها. لولا صلاحية الإنسان لهذا الإدراك لما أمره الله تعالى بالسير والتفكير والذي كثرت الدعوة إليه في القرآن الكريم «لقد بين القرآن أن الكون وما به من الشمس والقمر وغير ذلك مسخر لخدمة الإنسان، وأن الإنسان منح الصلاحية لتسخير هذه الأشياء بالعقل والتجربة، حدث ذلك في الوقت الذي كانت الأديان الأخرى ترى الكون وظواهره أمرًا فوق القوة وشيئًا مقدسًا، وكانت تعبده على هذا التصور، وكانوا يرون أن دراسة الكون أمر مذموم بناء على تصور أن الله تعالى خلق الكون ثم منحه الشيطان للتصرف فيه، وكانوا ينسبون كل من يشتغل بهذه الأمور إلى الجن». [3]

والذي ينظر إلى العالم الغربي وموقفه من العلم والعلماء في العصور السابقة يدرك تمام الإدراك هذا المعنى؛ فالمحاكم التي نصبت لرواد العلماء في أوربا تظهر مدى كرههم للعلم والمعرفة، أما الإسلام وكتاب الإسلام فإن أول كلمة نزلت فيه كانت (اقرأ) وحث على النظر والانتفاع من الكون بصورة لم يسبق لها مثيل.

والسير في الأرض والتفكر في جنباتها يصل بالإنسان إلى فهم السنن وإدراكها والانتفاع بها، فالسير في الأرض

---

(1) انظر: النظام الإلهي للرقي والانحطاط، لمحمد تقي الأمين، ترجمة د. مقتدى حسن الأزهري، ص 12- 13.

(2) في ظلال القرآن، جـ 57/1، بتصرف يسير.

(3) النظام الإلهي في الرقي والانحطاط، ص 149.

يتبعه الاتعاظ بمصارع الغابرين ووقائع الماضين، وعادته المتبعة في كل أولئك السابقين.

وهذا هو المراد من أن يكون الإنسان أهلا لإدراك السنن الربانية حتى يكون ذلك طريقًا لانتفاعه بها واتعاظه من خلالها.

* * *

المبحث الثاني

العلم بالسنن الكونية طريق إلى معرفة السنن الربانية

إن الناظر في الكون وما فيه وأطرافه وخوافيه يدرك أنه آية تدل على الخالق وعلاقة ترشد إلى الملك الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، وقد ورد في القرآن الكريم آيات وعبارات تغري بالتفكر في الكون والانتقال من خلاله إلى المكون، حتى لا يكون المرء كحمار الحي ينتقل من مكان إلى مكان والذي انتقل منه هو الذي انتقل إليه.

والكون أحد الجناحين اللذين يسير بهما إلى مظاهر قدرة الله عز وجل؛ أما الجناح الثاني فهو القرآن الكريم، والقرآن والكون يتلاقيان تلاقي أثرين لمؤثر واحد، وعنصرين يخرجان من مشكاة واحدة؛ فإن خالق الأول وصاحب الثاني واحد وهو الله سبحانه وتعالى.

(والعلم بسنن الله تعالى الكونية العامة طريق إلى العلم بسنن الله الخاصة في المجتمع البشري، ومعرفة تقلبات الحياة به، ومعرفة تطوره ومعرفة عوامل هذا التطور، ومعرفة مدى سلطان هذه السنن الإلهية على المجتمع؛ لأن العلم بهذه السنن عامة وخاصة هو القيم على توجيه الحياة وتعرفها بما وضع الله في خصائصه من طاقات لتصوير الظواهر الكونية ودوافعها القريبة أو البعيدة، وهذا العلم بالسنن الإلهية هو الذي وضع المجتمع الإسلامي في مكان الصدارة من الحياة يوم أن كان العلم بأوسع معانيه هو القائد لهذا المجتمع، فطاف آفاق السماوات والأرض نظارًا باحثًا ليستشف الحقائق الكونية من وراء السجف، يكشفها له القرآن ويهديه إلى أصولها.

والقرآن العظيم إذا تحدث عن سنن الله في المجتمع الإنساني فإنه يتحدث عنها كحلقة في سلسلة النظام الكوني القائم على التناسق بين عناصر الكائنات الوجودية تناسقًا تؤدي به عملها الذي تقتضيه طبيعة وجودها في مكانها من الحياة، فهو يتحدث عن نشأة هذا المجتمع نشأة استقلالية النوع ولكنه مرتبط أشد الارتباط بهذه الأرض يعيش عليها؛ لأنه بمادتها خلق وإليها بهذه المادة يعود ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ**﴾ [طه: 55] وبهذا الارتباط يحقق التوازن بين عناصر بنائه بناء اجتماعيا ينبع منه تفكيره وأخلاقه وطرائق عيشه ومراحل أطواره الاجتماعية صعودًا وإعزازًا في منازل الوجود المقدر له) [1]. والذي يتابع رصد الآيات القرآنية يرى لأول وهلة هذا الترابط بين سنن الله في الكون وسنته في النظام البشري، وهذا التمهيد من الأول للثاني، حتى لا يكاد يوجد حديث عن السنن الربانية أو نظام الله تعالى الذي يحكم سلوك البشر إلا ويسبقه أو يعقبه حديث عن نظام الله في الكون.

ومن هنا كان الأمر بعد الأمر في القرآن الكريم للإنسان مطلق الإنسان بأن يسير ويتفكر وينظر ويعتبر ويتأمل

(1) انظر سنن الله في المجتمع، ص 20-26.

الأحداث الماضية والوقائع الجارية حتى يأخذ من أمسه ليومه ومن يومه لغده، وينتفع بتجارب السابقين.

وطريقة عرض القرآن الكريم لهذه الفكرة تلونت وتنوعت بأكثر من نوع، وظهرت في أكثر من صورة؛ فمرة يتحدث القرآن الكريم عن حلقة من حلقات الصراع بين الحق والباطل، ويأمر رسوله والأمة – في شخصه الكريم – باستخلاص العظة واستلهام العبرة؛ كقوله تعالى بعد أن قص طبيعة الصراع في قصة نوح عليه السلام: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1] ومرة يضرب للناس مثلا لعلهم يتفكرون، وثالثة يغري الناس بالتأمل في القوانين الماضية والسنن الصارمة.

من هنا يمكننا أن نقول: إن هذا الترابط بين سنن الله في الكون وسنته في المجتمع الأولى تمهيد للثانية، والثانية تصديق للأولى، فهما يخرجان جميعًا من مشكاة واحدة، والذي يعلم سنة الله في الكون بقوانينه الصارمة ينبغي أن يدله ذلك إلى سنن الله في المجتمع، فإذا كانت بذرة لا تخرج بغير مقومات الحياة ولا تثمر من فراغ، فإن نصرًا لا يتحقق بدون أسبابه وصاحب الأمر والنهي في كل ذلك الله رب العالمين. فالعلم بالسنن الكونية طريق إلى العلم بالسنن الربانية.

* * *

(1) هود: 49.

المبحث الثالث

السنن الربانية من الفهم إلى التسخير ومن الإدراك إلى التوظيف

فهم السنن الربانية خطوة من خطوات الانتفاع بها والاستفادة منها، وإذا كنا نقول في مجال الحكم على الأشياء: إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فيمكننا أن نقول كذلك في ميدان السنن: إن فهمها طريق إلى تسخيرها وإدراكها سبب إلى توظيفها، وإلا فأنى لإنسان كائنًا من كان أن ينتفع بشيء لا يدرك كنهه ولا يسبر غوره، ولا يعرفه على حقيقته، من هنا فإن أوجب ما يجب على المسلمين أن يفهموا أولا سنن الله في الحياة والأحياء، وأن يتعاملوا معها بعد ذلك على هذا الأساس، فإن أكثر المسلمين اليوم لا ينقصهم إخلاص ولا ينقصهم إيمان بقدر ما ينقصهم من فهم واع لقضايا الدين وتصور معطياته حتى في المفاهيم العامة للكلمات: الدين – العبادة – الحرية – التجديد – الإصلاح... إلخ. هذه المصطلحات ينقص المسلمين فيها الضوابط التي تتيح لهم فرصة الانتفاع بحقيقة هذه المفاهيم، ونعود فنقول: إن العلم بالسنن والتعرف عليها أول درجة من درجات حسن التعامل معها، وهذا ما يسميه فقهاء الدعوة وروادها (فقه السنن الإلهية)، فأول شرط من شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية والقوانين الكونية في الأفراد والمجتمعات والأمم هو(أن نفهم أو نفقه فقهًا شاملا رشيدًا هذه السنن وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهي، أو ما نعبر عنه بـ (فقه السنن)، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعية والمعادلات الحضارية)[1].

ومن هنا يقول الإمام البنا – رحمه الله – فيما يشبه الاختزالات العميقة للتجارب البشرية: (لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد). [2]

ولقد رصد الأستاذ الشيخ البنا – رحمه الله – في هذه السطور القليلة حشدًا هائلا من القيم العالية والتوجيهات الرائعة التي هي بحق معالم وملامح لفقه السنن الربانية، ويمكن أن تستخرج من كلامه في فقه التعامل مع السنن الربانية هذه الخطوات:

أولا: عدم المصادمة.

---

(1) انظر: حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة.. قراءة في فكر الإمام الشهيد حسن البنا، د. عبد الحميد الغزالي، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، بدون تاريخ.

(2) انظر مجموعة الرسائل، رسالة المؤتمر الخامس ص115.

ثانيًا: المغالبة.

ثالثًا: الاستخدام.

رابعًا: التحويل.

خامسًا: الاستعانة ببعض السنن على بعض.

سادسًا: ترقب ساعة النصر. وهذه الخلاصات وغيرها أعقبها الشيخ .رحمه الله.بقوله:

(فعلى هذه الدعائم القوية أسسوا نهضتكم، وأصلحوا نفوسكم، وركزوا دعوتكم، وقودوا الأمة إلى الخير، والله معكم ولن يتركم أعمالكم) (1).

وإذا أردنا أن نفصل هذه الخطوات وجدناها على النحو التالي:

1- **عدم المصادمة**: ذلك أن الإدراك الحقيقي للسنن الربانية يجعل الإنسان بعيدًا عن مصادمتها، وكيف يصادمها وهو يدرك طبيعتها ويعلم سيرها وعدم تخلفها أو تبدلها وتحولها، من هنا فهو يتعامل معها على هذا الأساس تعامل الكيميائي مع المواد التي يعرف خصائصها ويدرك كنهها، والطبيب الذي يعرف خصائص المرض وأنواعه فيشخص الداء ويصف الدواء بكل تجرد وحيادية.

2- **المغالبة**: والمغالبة تعني المفاعلة، ويراد بها هنا أن المسلم إذا كان لا ينبغي له أن يصادم السنن والنواميس ولا يقف أمامها فإنه مأمور بأن يغالبها ويوظفها لصالحه، ويجعل تيارها معه لا عليه.

3- **الاستخدام**: وهو المقصود بالتوظيف بعد الإدراك والتسخير بعد الفهم، وهذا هو بيت القصيد؛ من فهم السنن الربانية أن يصل بها في النهاية إلى درجة توظيفها له وانتفاعه بها؛ بل حسن التوظيف وحسن الانتفاع.

4- **تحويل تيارها**: والمقصود من تحويل تيار السنن والنواميس الربانية أن يجعلها الإنسان تخدمه لا تستخدمه، وأن يغتنم قوتها وشدتها، وأن يجعل تيارها يجري في المسار الذي يخدمه ويعود عليه بالنفع والغنم.

5- **واستعينوا ببعضها بعض على**: وهذا دور الإنسان المدرك لطبيعة السنن والمدرك لأنه أهل لاستخلاف الله تعالى له، وجعله سيدًا في هذا الكون؛ فهو بهذا الاستخلاف وتلك السيادة يملك بعقله الذي وهبه الله تعالى له توظيف بعض السنن ببعض، والاستعانة بها عليها حتى يكون مسخرًا لها ولا تكون هي مسخرة له، وساعتها سيكون من أهل النصر القريب والفتح المبين.

---

(1) انظر مجموعة الرسائل.

والأمة اليوم في أمس الحاجة إلى هذا الفكر الواعي الذي يقوم على التدبر في سنن الله تعالى وفقه التعامل معها، فإن كثيرًا من أمراض أمتنا نشأت وترعرعت في ظل غياب الفهم الكامل لمضامين القرآن الكريم، والغيبوبة التي طالت عن مراد الله تعالى ونحن بتقصيرنا في هذا الجانب – جانب السنن الربانية وفقهها – نشارك في رسم صورة سيئة عن الإسلام عند أعدائنا، فإنهم يربطون بين تخلفنا العلمي والحضاري والثقافي والمعيشي وبين ديننا، فيظلم هذا الدين الجريح بهذه النظرة إليه، ولنا في صنع هذا الظلم له نصيب أي نصيب.

إن من فهموا قوانين الله تعالى وسننه في خلقه استطاعوا أن يحققوا سبقًا ويحرزوا نصرًا، ويصلوا إلى أهدافهم؛ فمؤمن آل فرعون استطاع أن يصل إلى ما يريد من خلال إرشاد قومه إلى سنن الله تعالى في الأنفس والآفاق، وأتت عبارته بهذه الدقة البالغة والبيان المعجز ﴿**كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ**﴾[1]. ﴿**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[2].

﴿**فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾[3]، وجنود طالوت فهموا أيضًا سنن الله تعالى فقالوا: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[4].

وإذا كان هؤلاء الفاهمون لسنن الله في الكون والنفس صدعوا برأيهم وأظهروا فهمهم، فإن أمة تريد النصر وتسعى إليه لا بد أن تفهم هذه السنن وتنادي بفهمها حتى يعم النصر المؤمنين ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾[5].

* * *

(1) غافر: 34.

(2) غافر: 40.

(3) غافر: 44.

(4) البقرة: 249-251.

5 – الروم:4, 5.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة مع السنن الربانية في لسان العرب ومضامين القرآن الكريم وأحاديث الرسول **صلى الله عليه وسلم** نريد أن تختم هذه الدراسة بنقاط نوجزها في الآتي:

أولا: اهتمام القرآن الكريم بالحديث عن السنن والقوانين التي تحكم سلوك البشر وتنظم حياتهم؛ حيث وردت لفظة السنن مفردة ومجموعة ثماني عشرة مرة، عدا ذكر السنن الفعلية؛ كسنة النصر والإهلاك والتسخير والأجل، والتداول الحضاري والإنذار والترف والمترفين والظلم والظالمين والمكر والماكرين، وقيام الحضارات واندثارها، والبقاء والفناء. وشكر النعم وكفرها، وسنة التغيير والصراع بين الحق والباطل والتمكين، والابتلاء والاستخلاف والتدرج والهداية والإضلال، والأسباب والمسببات والتزاوج والرزق.

ثانيا: مدى تقصير المسلمين في الدراسات التي تعنى بهذا الجانب من جوانب الفهم القرآني، وتوظيف هذه السنن والانتفاع بها، وقل من المسلمين من أفرد لهذه الجوانب حديثا يتناسب مع قيمتها وأهميتها،على الرغم أنها جانب من جوانب بناء الشخصية المسلمة؛ بل الشخصية الإنسانية يفوتها خير كثير بفقدان فهم هذه السنن والتعامل معها. وإذا كانت دراسة هذه السنن فريضة لأن القرآن دعا إلى فهمها وحسن التعامل معها، فإنها ضرورة حياتية تحتمها وضعية البلاد المسلمة التي ارتبط فيها الفقر والمرض والجهل، ثالوث الدمار كما يسمى، ارتبط بهم على أنهم مسلمون، والحق أن الإسلام برئ من هذا التردي الذي يعيشه المسلمون.

ثالثا: بان من خلال هذه الدراسة كذلك أن هناك آثارا مدمرة تترتب على إهمال التعامل مع سنن الله تعالى في الكون، وهذا الإهمال الذي قد يصل إلى التأثير على جوانب الفكر فتظهر مقولات ظالمة وأفكار غير متزنة، والسبب وراء ذلك عدم فهم السنن الربانية فهما قرآنيا.

رابعا: بان كذلك أن للسنن الربانية خصائص وصفات فهي مطردة شاملة عامة، لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول، وهي لا تحابي ولا تجامل، كما أنها لا تخالف المعجزة والخوارق. فهناك قوانين تحكم المعجزات وقوانين تحكم السنن الجارية فلا تعارض ولا تنافر؛ بل كل في فلك يسبحون.

خامسا: كما أن هذه السنن مربوبة لله تعالى وخاضعة لأمره ونهيه، فهي غير مستقلة ولا ثابتة الفعل؛ فالكون كله بقوانينه الكونية والربانية يخضع لمشيئة واحدة وإرادة قاهرة، وهي إرادة الله عز وجل.

سادسا: اتضح كذلك من خلال هذه الدراسة أن حجية السنن الربانية قاطعة ودلالاتها ثابتة، نظرا لكثرة الأمر بالانتفاع بها والاستفادة منها.

سابعا: هناك علاقة وطيدة وعروة وثقى بين السنن الكونية أو نظام الله في الكون والسنن الربانية؛ أي نظام الله في سلوك الإنسان.

ثامنا: هناك صيغ وردت عليها لفظة السنن في القرآن الكريم مجموعة ومفردة ومضافة وموحدة بصور متعددة.

تاسعا: وردت السنن في مواطن وموارد بعينها مثل: القصص القرآني، والمثل القرآني، والآيات الآمرة بالسير في الأرض والنظر في الكون، والتدبر في مصارع الغابرين ووقائع الماضين، كما كثر ورودها في الآيات التي يرتبط آخرها بأولها ارتباط الشرط بالمشروط، والعلة بالمعلول، والسبب بالمسبب.

عاشرا: اتضح كذلك من هذه الدراسة أن الإنسان يهيأ لإدراك السنن الربانية، ومن ذلك أن الله تعالى علمه الأسماء والمسميات وحقائقها ووظائفها والانتفاع بها، وأن إدراك السنن الكونية طريق من طرق إدراك السنن الربانية والتعرف عليها.

حادي عشر: أن الإنسان لا بد وأن يوظف هذه السنن ويفيد منها، وأن يوظفها ويحسن التعامل معها، وإلا كان آثما شرعا.

ثاني عشر: دعوة ملحة في أن يكون هذا الباب الخصب من أبواب الدراسات القرآنية محطا لأنظار العلماء وأقلام الباحثين؛ حتى تستطيع أن تنهض أمتنا على ضوء دستورنا، وفي ظلال فهمنا لكتاب ربنا.

والله المستعان

أهم المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم.

2- إحياء علوم الدين،للإمام الغزالي, ط: عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

3- أساس البلاغة،للإمام الزمخشري, ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الثالثة 1985م.

4- أسرار البلاغة، للإم عبد ام القاهر الجرجاني، بتعليق السيد رشيد رضا, ط: محمد على صبيح، ط السادسة، 1379هـ -1959م،.

5- أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم, بدون.

6-الإمام محمد الغزالي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، د. رمضان خميس الغريب, ط: دار الحرم للتراث، ط أولى، 2003م.

7- الأمثال من الكتاب والسنة، للحكم الترمذي، تحقيق على محمد البجاوي, ط: دار التراث، بدون.

8-بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي, ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط الثالثة، 1416هـ، 1996م،

9- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور,ط: دار سحنون, بدون.

10- تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار،. السيد رشيد رضا, ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1973م.

11- تفسير القرآن العظيم، للإمام عماد الدين أبي الفداء بن كثير.

ط عيسى البابي الحلبي.

12- توحيد الخالق، للأستاذ الشيخ عبد المجيد الزنداني.

ط دار المجتمع، ط الثانية 1407هـ، 1987م.

13- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام ابن جرير الطبري, ط: دار الريان للتراث 1407هـ - 1987م،.

14- حتى يغيروا ما بأنفسهم، للأستاذ جودت سعيد ط مطبعة الحسين الجديدة، ط الثالثة، 1397هـ، 1977م.

15- خلق الإنسان بين العلم والقرآن، د. عبد الفتاح طيرة ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م.

16- روح المعاني، للإمام الألوسي ط دار الكتب العلمية، ط الأولى 1415هـ-1994م.

17- السنن الإلهية في الأمم والجماعات، د. عبد الكريم زيدان، ط: الرسالة.

18- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، للمرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون, ط: الدار السعودية، ط الثالثة 1404هـ-1984م،.

19- شرح المقاصد، للعلامة سعد الدين التفتازاني, ط: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط أولى، 1422هـ، 2001م.

20- الفلسفة القرآنية، للأستاذ العقاد, ط: دار الهلال، بدون تاريخ.

21- في ظلال القرآن، للشيخ سيد قطب رحمه الله, ط: دار الشروق، ط الرابعة، 1397هـ-1977م.

22- قدر الدعوة، للأستاذ رفاعي سرور ط مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، 1412هـ -1992م.

23- القرآن والعلم الحديث، د/ منصور حسب النبي, ط:الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991م.

24- القرآن والعلم الحديث، للأستاذ عبد الرزاق نوفل, ط: دار الشعب، 1402هـ-1982م.

25- القصص القرآني.. إيحاؤه ونفحاته، د/ فضل حسن عباس, ط: دار الفرقان، ط الثانية، 1413هـ، 1992م.

26- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام جار الله الزمخشري, ط: مكتبة مصر.

27- كيف تتعامل مع القرآن, للمرحوم الشيخ محمد الغزالي, ط: دار الوفاء، ط الثانية 1412هـ-1992م.

28- اللآلئ الحسان في علوم القرآن، للدكتور موسى شاهين لاشين, بدون تاريخ.

29- لسان العرب لابن منظور، ط دار الفكر، ط أولى.

30- الله يتجلى في عصر العلم، ط الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ط الرابعة، 1986م.

31- مباحث في علوم القرآن، للشيخ مناع القطان, ط: مكتبة وهبة.

32- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.

33- مجموعة الرسائل للإمام الشهيد حسن البنا، ط: دار الشهاب.

34- محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي, ط: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى 1418هـ، 1997م.

35- مدخل إلى دراسة السنن الإلهية في القرآن الكريم..، د/مجدي عاشور, سلسلة دراسات إسلامية، العدد 111، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1425هـ-2004.

36- مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، للأستاذ عمرعبيد حسنة.

المشروع الإسلامي لنهضة الأمة.. قراءة في فكر الإمام الشهيد حسن البنا، أ.د. عبد الحميد الغزالي, ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية، إعداد.

37- مفاتيح الغيب للإمام الرازي.

38- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني, ط: الأنجلو، بدون تاريخ،.

39- مفهوم سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم، بحث للدكتور صديق عبد العظيم أبي الحسن، ضمن مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الثانية عشر، العدد الحادي والثلاثين، ذي القعدة، 1417هـ -1997م.

40- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ط دار إحياء الكتب العربية.

41- الموسوعة القرآنية المتخصصة، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1423هـ، 2003م.

42- النظام الإلهي للرقي والانحطاط، لمحمد تقي الأميني, ط: دار الصحوة، ط أولى 1409هـ، 1988م.

43- نظم اللآلئ من حكم الغزالي، جمع وإعداد د/ رمضان خميس الغريب, ط: دار الحرم للتراث.

44- النهاية في غريب الحديث والأثر, لابن الأثير.

فهرس الموضوعات

مقدمة 5

الفصل الأول: مفهوم السنن الربانية في لسان العرب والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة 9
المبحث الأول: مفهوم السنن في لسان العرب 9
المبحث الثاني: مفهوم السنن الربانية في القرآن الكريم 12
المبحث الثالث: السنن الربانية في السنة المطهرة 21
المبحث الرابع: أهمية دراسة السنن والآثار المرتبة على إهمالها 24
الفصل الثاني: خصائص السنن الربانية وحجيتها ومواردها 31
المبحث الأول: خصائص السنن الربانية 31
المبحث الثاني: حجية السنن الربانية 35
المبحث الثالث: صيغ ورود السنن في القرآن الكريم 40
خلاصة واستنتاج 47
المبحث الرابع: موارد السنن الربانية 48
المبحث الخامس: صور التعبير عن السنن الربانية في القرآن الكريم 57
الفصل الثالث: العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية 60
المبحث الأول: خصائص السنن الكونية 60
المبحث الثاني: السنن الكونية والسنن الإلهية 67
الفصل الرابع: منهجية التعامل مع السنن الربانية 78
المبحث الأول: الإنسان مهيأ لإدراك السنن الربانية 78
المبحث الثاني: العلم بالسنن الكونية طريق إلى معرفة السنن الربانية 81
المبحث الثالث: السنن الربانية من الفهم إلى التسخير ومن الإدراك إلى التوظيف 83
الخاتمة 86
أهم المصادر والمراجع 88
فهرس الموضوعات 90